الدكتور عزت السيد أحمد

عالم مجنون

المضحك المبكي
في السياسة الأمريكية

دار الفكر الفلسفي 2008

الدكتور عزت السيد أحمد

عالم مجنون

المضحك المبكي في السياسة الأمريكية

☆ الكتاب : **عالم مجنون.**

المضحك المبكي في السياسة الأمريكية.

☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد** .

☆ عدد الصفحات: ١٢٠ صفحة.

☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.

☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف.

☆ الطبعة الأولى: **٢٠٠٨م.**

☆ **م/١٠١١٠٦/ ؟ تاريخ: ٢٠٠٨/١٢/٣٠م.**

☆ تمت عمليات التنضيد والإخراج في دار الفكر الفلسفي للدراسات والترجمة والنشر بدمشق.

☆ تطلب كتب دار الفكر الفلسفي من المكتبات المعتمدة لتوزيع كتبها أو على الناسوخ (الفاكس) المذكور أدناه.

☆ **الحقوق جميعها محفوظة.**

تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ وسيلةٍ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام من دون موافقةٍ خطيَّة من النَّاشر أو المؤلِّف.

☆ النَّاشر: **دار الفكر الفلسفي.**

هاتف وناسوخ ٠٠٩٦٣ . ١١ . ٦٢٥٩٧٩٩٧

الدكتور عزت السيد أحمد

عالم مجنون

المضحك المبكي في السياسة الأمريكية

دار الفكر الفلسفي
2008 للدراسات والترجمة والنشر

CRAZY WORLD !

JOKER AND TEARFUL
IN AMARECAN POLICY

BY
EZZAT ASSAYED AHMAD

Published By
DAR AL FEKR AL PHLSAPHY

Telefax. 00963-11-62597997

Damascus 2008

الإهداء

إلى

من بقي من العقلاء

في العالم

التسلح من أجل ضرب الذات

منذ انهيار الاتحاد السُّوفيتي بدأت الولايات المتحدة الأمريكيَّة بالتَّكشير عن أنيابها على نحوٍ فاضحٍ، غير مباليةٍ بأيِّ ضرب من ضروب القيم والمعايير الإنسانيَّة؛ الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والأدبيَّة والجماليَّة. ودشَّنت ما سيسمَّى عصر الولايات المتحدة أَو العصر الأمريكي بحرب الخليج الثَّانية الَّتي ورَّطت العراق من خلالها بغزو الكويت لتستعرض الولايات المتحدة عضلاتها بهذه الدَّولة الصُّغرى، وتجرِّب كيف يمكن أن تقود العالم، وتظهر نفسها على أنَّها الشُّرطيُّ الذي سيضبط العالم بعصاه في المراحل القادمة من عمر البشريَّة!!

من المؤكد أَنَّهُ من حقِّ الولايات المتحدة أو أيِّ دولة في موقعها أن تفكر في مصالحها، وتسلك من السُّبل ما يعزِّز مصالحها. وقد شهد تاريخ صعود الحضارات وهبوطها أَو انهيارها من مثل هٰذا السُّلوك الكثير الكثير، وبمختلف الصور والأشكال والألوان؛ من الإنسانيَّة المبالغ فيها إِلَى الدمويَّة الْمُنَفِّرَةِ الْمُقَزِّزَة... ولكنَّ الولايات المتحدة الأمريكية وحدها دون أمم الأرض الَّتي سادت قبلها هي الَّتي انفردت بعنجهيَّة وجبروت وخرق للقيم والأعراف الإنسانيَّة على نحو رُبَّما لن يكون له مثيل فيما سيأتي من عمر البشر على الأرض، كما لم يسبق بمثيل أبداً.

صحيحٌ أنَّ انهيار الاتحاد السُّوفييتي كان المؤذِّن بالتَّكشير الصَّارخ الفاضح عن أنياب الجبروت والعنجهيَّة، إلا أنَّ هٰذا السُّلوك ليس جديداً ولا طارئاً على الولايات المتحدة الأمريكيَّة، رُبَّما يجوز القول إنَّهُ كائنٌ في أصل نشأتها الَّتي قامت على إبادة الملايين من الهنود الحمر؛ السُّكَّان الأصليون لأمريكا، ولم يكن المهاجرون بحاجةٍ إلَى ذلك أبداً، خاصَّة وأنَّ هؤلاء الهنود مسالمون وديعون كما أقرَّ الأمريكيون أنفسهم... وعندما ألقت الولايات المتحدة القنابل الذَّرية على هيروشيما وناچازاكي لم تكن مضطرةً لذلك على الإطلاق... ولكِنَّها أرادت أن تعلن للعالم أنَّ هناك دولة لا تعرف للرَّحمة أو الشَّفقة أو الإنسانيَّة سبيلاً... ولم يتوقَّف الأمرُ عند هٰذا الحدِّ... ولن يتوقَّف!!

لا يعنينا ذلك كثيراً هنا فَقَطْ، لأنَّ مشهدنا الآن هو لوحة واحدةٌ من هٰذا السيناريو الكبير، وهي في الوقت ذاته واحدةٌ من مفارقات المضحك المبكي في السِّياسية الأمريكيَّة.

من حقِّ الولايات المتحدة، بل من واجبها، أن تسعى لتحقيق مصالحها وتكريسها وتعزيزها. ومن حقِّ الولايات المتحدة أيضاً أن تمتلك كلَّ صنوف الأسلحة بمختلف مستوياتها وأنواعها من أجل أن تدافع عن ذاتها، وتحمي حدودها، وتستعين بها على تحقيق مصالحها... كلُّ ذلك من حقها، ولا أحد يستطيع حرمانها أَو منعها أَو أن يجحدها هٰذا الحقَّ أو ينكره عليها... نعم، لا أحد يحقُّ له أن ينكر على الولايات المتحدة أيًّا من هٰذه الحقوق... ولكن في

الوقت ذاته لا يجوز لأحدٍ أن يمنع أيَّ أمَّةٍ أُخْرَى من هٰذه الحقوق الَّتي هي واجبات ملزمة لأبنائها وليست محض حقٍّ أو حقوق يمكن التَّنازل عنها.

أن تختصم الولايات المتحدة مع العالم أمرٌ مقبول.

أن تحارب الولايات المتحدة أمم الأرض كلها أمرٌ معقول.

أن تبيد الولايات المتحدة كل الشُّعوب لتبقى وحدها أمرٌ يمكن قبوله...

ولكن أن تمنع الولاياتُ المتحدة دولَ العالم من امتلاك أيِّ نوع من السِّلاح يمكن يطال خارجها بشبرٍ فهٰذا أمر لا يمكن قبوله ولا حَتَّى تصديقه.

ولماذا تمتلك الأمم أو الدُّول الأسلحة أصلاً؟ أليس للدفاع عن نفسها وتحقيق مصالحها كما هو جائز للولايات المتحدة؟ فكيف يمكن أن تدافع عن نفسها بأسلحة تتساقط على أرضها وأبنائها؟ ألا يعدُّ ذلك ضرباً من الانتحار، والانتحار الأحمق المجنون ؟!!

رُبَّما يكون من المستساغ أن تكون الولايات المتحدة وحدها ممتلكة الأسلحة الَّتي تطال العالم والعالم كله خالٍ من الأسلحة لأنَّها ستظل وحدها الحاكم والحكم والقاضي والجلاد... ولكن الولايات المتحدة لا تريد ذلك تماماً إنَّها تريد أن تقسم العالم إِلَى قسمين؛ غرب وشرق، شمال وجنوب... ومع الغرب أَو الشمال تقف الدول العميلة، المؤيدة للسياسة الغربية، وهٰذا الفريق يمتلك الأسلحة الَّتي تطال كلَّ الحدود. أما الفريق الثاني فهو محرومٌ من هٰذا الحقِّ حرماناً مطلقاً، وهٰذا يعني جعل نصف دول العالم على الأقلِّ منتهكةً مخترقةً مسحوقةً ذليلةً لا يحقُّ لها الدِّفاع ولا الرَّدُّ ولا الرَّفض ولا الاعتراض ولا

السَّعي... لا يحقُّ لها أن تعيش أيَّ ضربٍ من ضروب العيش العزيز الكريم، ولا حَتَّى في أدنى مستويات هذا العيش!!

ولذلك ما إن انهار الاتحاد السُّوفييتي وزالت سياسة الاستقطاب الثُّنائي حَتَّى نشرت الولايات المتحدة الأمريكية جيوشها على الممرات والمضائق والمطارات... وراحت تمارس مختلف ضروب القرصنة (والبلطجة) على السُّفن والشَّاحنات والطائرات؛ توقفها، تفتشها، تحتجزها، تصادرها... تفعل ما يحلو لها من غير ما رادع ولا وازع!! غير آبهةٍ بقوانين أو أعرافٍ أَو قيمٍ أَو تقاليد!!!

كلُّ هٰذا الجبروت وخرق القوانين والأعراف والقيم والتَّقاليد من أجل منع الدول المظلومة، الَّتي تسميها الولايات المتحدة دولاً مارقة أَو خارجة عن القانون، من الدفاع عن نفسها وحقوقها، كي تظلَّ رازحةً تحت نير الظالم المستغِل!! كي لا تمتلك أسلحة يمكن أن يصل مداها خارج حدودها!!

ألا يعني ذلك الإيذان بالقمع والاعتداء على الذات؟؟

من المؤكَّد أنَّ الدَّولة الَّتي لا تمتلك من الأسلحة إلا الَّتي يكون فعلها داخل حدودها إنَّما هي دولة قمعيَّة تستهدف مواطنيها فَقَطْ... ومن المؤكَّد أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية تريد ذلك من الدُّول المقصودة، وهي ولم يعد ذلك سرًّا، الدول العربيَّة والإسلاميَّة على الأقل. وإذا زعم زاعمٌ أنَّ الولايات المتحدة تريد نشر السَّلام والديمقراطيَّة في العالم، وفي العالم العربي والإسلامي فهو واهمٌ، وحسبه ما يفقأ عين كلِّ جاحد من الأمثلة والشَّواهد الَّتي يعرفها الجميع.

من محض الوهم الظنُّ أنَّ الولايات المتحدة تريد تطبيق الديمقراطية في أيِّ بلدٍ من بلدان العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية وليس من مبالغة في ذلك، لأنَّ أيَّ ممارسةٍ ديمقراطيَّةٍ في أيِّ بلد من بلدان العالم يعني على نحوٍ مباشرٍ صعود القوى المعادية للولايات المتحدة إِلَى سدَّة السُّلطة، بوصف ذلك نتيجةً حتميَّةً مباشرةً للممارسة الأمريكيَّة المعادية لشعوب العالم قاطبةً، وبوصف ذلك أيضاً في الوقت ذاته إساءة للشَّعب الأمريكي ذاته وجعله مكروهاً ومنبوذاً من قبل شعوب العالم قاطبةً. هٰذه من جهة أولى، ومن جهة ثانية لا يوجد أيُّ ربط بَيْنَ الممارسة الديمقراطية وتجريد دول العالم من الأسلحة إلا الأسلحة الَّتي لا تطال إلا مواطنيها... ومن قال إنَّ الدولة الَّتي تمتلك أسلحة قوية لا تطبق الديمقراطيَّة، أو أنَّ هناك تنافياً بَيْنَ امتلاك الأسلحة القوية وتطبيق الديمقراطيَّة؟! إنَّها معادلة جائرة، متخارجة الدوائر بكلِّ تأكيد.

إنَّ ما تريده الولايات المتحدة بكل تأكيد هو سلطات أو حكومات ترضخ للإرادة الأمريكية بالانشغال بالداخل وحده من دون أي تفكير أو تطلع إِلَى خارج حدودها حَتَّى ولو كان هذا الخارج هو كرامتها مداسة تحت الأقدام، بل تحت أقدام الأعداء والأرذال!! والديمقراطية الَّتي تريدها تريدها في هٰذا الإطار هي ديمقراطية الاعتراف بالولايات والمتحدة وإسرائيل ولا شيء غير ذلك ولا أبعد منه، إنَّها تريد تطبيق الديمقراطية الَّتي توصل فَقَطْ عملاء الولايات المتحدة إِلَى السلطة وأيُّ وصول لقوى أُخْرَى هو قمع للحرية ومناصرة للإرهاب!! وبهٰذا المعنى صار من الممكن أن نفهم ما تريد الولايات

المتحدة من تجريد دول العالم من أيِّ سلاح يمكن أن يصل إِلَى خارج حدودها:

إنَّها تريد أن تقتل الحس الإنساني عند البشر، عند بني آدم... إنَّها تريد أن تحول البشر، ولاسِيَّما العرب منهم والمسلمون؛ أفراداً وجماعات ومجتمعات، من أسوياء إِلَى مازوخيين، لا يكتفون بتعذيب أنفسهم، بل يتلذذون بتعذيب أنفسهم... وإلا كيف يمكن أن نفهم المساعي الأمريكيَّة بكلِّ الوسائل والأساليب لمنع أيِّ دولة عربية أو مسلمة من امتلاك أيِّ سلاحٍ يطال شبراً مما هو وراء حدودها؟! وقد بيَّن رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الغاية من ذلك بقوله في أثناء الحرب على العراق: «المطلوب هو إزالة فكرة المقاومة من العقلية العربيَّة، وإزالة فكرة الحصول على الحقِّ بالقوَّة».

من الخطأ تماماً الظنَّ أنَّ أيَّ شعبٍ أو أمَّةٍ مقصودة بهذه السياسة أكثر من العالم العربي خاصَّة والإسلامي عامَّة... ولكن في الوقت ذاته من الظُّلم القول إنَّ العالم العربي والإسلامي هو وحده المقصود من هذه السياسة، فكلُّ دولة تظهر فيها بوادر أيِّ قوة؛ ماديَّة أو معنويَّة، تهدِّد المكانة الأمريكية في العالم ستكون مقصودة بهذه السياسة. والشَّواهد على ذلك جدُّ كثيرةٍ يرجع بعضها إِلَى بدء ظهور الولايات المتحدة بوصفها قوة عظمى تلعب الدور الأبرز في العالم، ففي ٣٠ آب ١٩٥٠م نقلت جريدة نيويورك هيرالد تربيون عن الجنرال **وليام روبرتس** قائد قوَّة التدريب الأمريكية في كوريا قوله التالي الذي يشير بوضوح إِلَى ما تريده الولايات المتحدة من الدِّيمقراطية والأسلحة الَّتي تسمح للدول الأُخْرى بامتلاكها:

«إنَّ بعثة التَّدريب العسكريَّة الأمريكيَّة في كوريا شاهدٌ حيٌّ يبيِّنُ كيف أنَّ الاستقلال الواعي والقويَّ لخمسمئةٍ من الضُّبَّاط والجنود الأمريكيين قَدْ مكَّن من تدريب مئة ألف كوري هم الذين سيقومون بإطلاق الرَّصاص بدلاً عن الأمريكيين. أي إنَّ لدافع الضَّرائب الأمريكي جيشاً في كوريا يقوم بدور كلب الحراسة الرَّائع الذي يحرس الاستثمارات الأمريكيَّة في تلك البلاد... إنَّهُ قوَّة تمثِّلُ حدًّا من النَّتائج بأقلِّ التكاليف»[1].

هٰذه هي وظيفة السِّلاح المسموح للدُّول الأُخْرى بامتلاكه، وهٰذه هي مهمة الدِّيمقراطيَّة السُّموم بها في هٰذه الدُّول... ومن الأمثلة المشابهة لذلك ما ذكره الشاعر والكاتب الإنجليزي **هارولد بتر** في اللوموند الفرنسيَّة مؤخَّراً إذ قال:

«ولعلَّ أبرز مثال على ذلك وأفظع مأساة من بَيْنِ العديد من المآسي الَّتي ارتكبتها الولايات المتحدة في الماضي هي قصَّة جزيرة هاييتي الَّتي ظلَّت مغمورة وبعيدة عن أنظار النَّاس لعشرات السِّنين... لَقَد عاشت هاييتي في الواقع أقسى المعاناة تحت نير القائد العسكري **دوفالييه**، فمنذ عام ١٩٨٦م ما فتئت الضُّغوط الشَّعبيَّة تتوالى وتتعاظم في هٰذه الجزيرة حَتَّى تمكنت في النهاية من إسقاط الطَّاغية. ولكنَّ الديكتاتوريات السِّياسيَّة تتالت فيما بعد في تلك البلاد، وكانت الانتخابات الدِّيمقراطيَّة الأولى عام ١٩٩٠م الَّتي أوصلت **الأب أريستيد** إِلَى السُّلطة بعد أن حصل على ٦٧% من

(١) . نقلاً عن: نصر شمالي: **قانون ترومان إضافة لقانون لنش!** . ضمن جريدة **تشرين** . دمشق . العدد ٨٧٠٤ . الأربعاء ١٣ آب ٢٠٠٣م.

الأصوات. وكانت سياسته تنادي بإنقاذ الشعب الهاييتي من الفقر والبؤس وبإعادة الكرامة إليه... ولكن بعد ثمانية أشهر وقع انقلاب عسكريٌّ جديدٌ، وتولى العسكريون زمام الأمور في البلاد لثلاث سنوات تمَّ خلالها إعدام خمسة آلاف شخص»[٢]... هنا تمَّ سرور الولايات المتحدة كما يوحي الكاتب الأمريكي، ولكِنَّها كانت مضطرة للتدخل لإنقاذ الديمقراطية الَّتي فاحت رائحة دمائها المسالة، فتدخلت...

ولكن كيف تدخلت؟

يتابع الكاتب الأمريكي قائلاً: «إنَّ ما فعلته الولايات المتحدة في الواقع هو أنَّها أعادت الوضع إلَى ما كان عليه في السَّابق؛ فقامت بمنح القادة العسكريين اللجوء السياسي والحماية التَّامة، وتمَّ إقصاء **الأب أريستيد**، وتهميش السِّياسة الاقتصاديَّة الَّتي تبناها والَّتي من أجلها انتخبه شعبه!!»[٣].

لو أنَّ **الأب أريستيد** كان منافقاً أَو خادعاً أَو كاذباً فانقلب على الشعارات الَّتي رفعها لهبت الولايات المتحدة لحمايته ودعمه وتأييده، ولكنَّهُ كان صادقاً مع شعبه والشعارات الَّتي رفعها لنصرة شعبه... ولذلك لم تستطع المخابرات الأمريكية الصبر عليه... أطاحت به سريعاً، وأطاحت بمشروعه.

---

(٢) . هارولد بتر: **صور من فصول الهيمنة الأمريكية** . ترجمة ماجدة تامر . ضمن جريدة **الثورة** . دمشق . العدد١٢١٨٠ . الأربعاء ١٣ آب ٢٠٠٣م.

(٣) . المرجع السابق . ذاته.

ويعرض لنا الكاتب الأمريكي ذاته؛ **هارولد بنتر** مثالاً آخر فيقول: «وفي عام ١٩٧٩م انتصر السَّانديون في نيكاراجوا على ديكتاتوريَّة الطَّاغية **سوموزا** إثر قيام ثورة شعبية عارمة لإنقاذ البلاد من البؤس والدمار، فتشكَّلت الحملات لمحو الأميَّة، واتخذت الإجراءات اللازمة والمبادرات البنَّاءة لتحسين أوضاع الشعب وإنقاذه من الأمراض والفوضى... واستطاعوا على رغم كثرة أخطائهم من أن يؤسسوا مجتمعاً حيويًّا ومتماسكاً. فما كان من الولايات المتحدة إلا أن عملت بكلِّ الوسائل، وعلى حساب أكثر من ثلاثين ألف ضحيَّة على تدمير بنية هذا المجتمع الفتي والقضاء على حركات النمو والإصلاح...!!»[٤].

فكيف يمكن أن نفهم إذن مطالبتها بعض دول العالم بإجراء إصلاحات؟!

لم يعد من الصَّعب فهم المقصود من هٰذه المطالبة، ولم يكن قبل ذلك صعباً أصلاً، حسبنا ذكرته جريدة (أوغلوبور . الدنيا) البرازيلية لتبيان الغاية من هذه المطالب، فقد أوردت في مطالع التِّسعينيات من القرن العشرين قولها:

«إن خطة الرئيس **بوش**[٥] لنصف الكرة الغربي تقضي بإعادة تنظيم عسكرية شاملة تصل إلى حدِّ التَّمييز العنصري التقاني (التكنولوجي) وتحويل الصناعات الحربية البرازيلية بكل ما أحرزته من تقدُّمٍ تقانيٍّ في العقدين

---

(٤) . المرجع السابق . ذاته.

(٥) . المقصود هو جورج بوش الأب.

الأخيرين إلى مصانع تجميع رخيصة لمنتوجات مثل أحذية الجنود، تلزم أمريكا»[٦].

وبمعنى آخر فإنَّ المطلوب من دول العالم أن تكرس خبراتها وتقنياتها لأمرين:

أولاهما: تصنيع أحذية وأطعمة وألبسة للجنود والمواطنين الأمريكيين والأوربيين.. والقيام بالأعمال والمهن والصناعات الَّتي يأنف هؤلاء من القيام بها أو يكون القيام بها مضيعة لوقتهم وجهدهم.

ثانيهما: قمع شعوبهم بقوة السلام الذي سمح لهم بامتلاكه، وإقناعهم بهذا السِّلاح بأنَّ السَّيد الأمريكي هو أنموذج الإنسان الأمثل، وهو القدوة والمثل الأعلى الذي ينبغي النَّظر إليه دائما باحترام وتقدير وقداسة...

أمَّا وظيفة هؤلاء الأمريكيون الأفذاذ فستكون التَّفرُّغ للإبداع العلمي والتقني والفكري والصناعات الدقيقة التي لا يقدر عليها غيرهم...

انتهت فكرة المشهد، ولكن المشهد لم ينته... إنَّهُ أطول من ذلك بكثير، ومع ذلك نقول مع **هارولد بنتر**: «الستارة تفتح، والأضواء تطفأ، ويبدأ فصل جديد من فصول الهيمنة الأمريكية... فهل يمرُّ كلُّ ذلك كما لو أنَّ شيئاً لم يكن؟!»[٧].

---

(٦) . نقلاً عن: مجلة **الكفاح العربي**. بيروت. العدد ٧١٠ تاريخ ٩ آذار/ مارس ١٩٩٢م. ص١٥.

(٧) . هارولد بنتر: **صور من فصول الهيمنة الأمريكية**. م.س.

على أيِّ حالٍ ستجني الولايات المتحدة الثِّمار... ستنعم الولايات الآن؛ قليلاً أو كثيراً، طويلاً أو قصيراً... ولكِنَّها ستدفع الثمن غالياً، وغالياً جدًّا... إن لم يدفع الشَّعب الأمريكي الآن الثَّمن فإنَّ أبناءهم بكلِّ تأكيد سيحصدون ثمار ما يزرع الأمريكيون الآن. ولذلك لم يخطئ **هارولد بنتر**، والكثيرون غيره الذين أعلنوا مثل هذه الفكرة، إذ قال: «فلنسمح لأنفسنا أن نقول علناً للولايات المتحدة: إنَّ الأموات يشيرون إلينا بأصابع الاتهام وينتظرون منا أن نعترف بجريمتنا تجاههم»[٨].

★ ★ ★

(٨) . المرجع السابق . ذاته.

★ ★ ★

الأمريكيون

يقتسمون الجثّةَ قبل قتلها

عـالمٌ مجنـونٌ هـو الـذي نعيشـه اليـوم؛
وأيُّ جنـونٍ هـو الـذي يعيشـه العـالم؟! وإذا كـان
مـا يـدعونا إِلَى وسـم هـذا العـالم بـالجنون أمـورٌ
كثـيرةٌ جـدًّا فـإنَّ مـا حـدث في الحـرب العدوانيَّـة
الأنجلوأمريكيَّة على العراق ما يكفي من الحقائق
لإثبات دعوانا بأنَّ العالم الذي نعيشه عالمٌ مجنونٌ.

أستحضر من حرب الخليج الثَّانية، الَّتي سمِّيت بالكثير من الأسماء، حادثـةً واحـدةً مـن كثـيرٍ مـن الحـوادث المشـابهة، لتكـون مفتاحـاً لنـا هنـا. ففي حمأة القصف الجويِّ والأرضيِّ على الكويت والعراق قدَّم أحد المسؤولين الأمريكيين إِلَى مسؤولٍ كـويتيٍّ عقـوداً لإعـادة إنشـاء وإعمـار إحـدى محطَّـات توليد الطَّاقة الكهربائيَّة في الكويت، ولأنَّ هذه المحطَّة كانت سليمةً تماماً، ولم تتأثَّر أو تتعرَّض لأيِّ ضررٍ استغرب المسؤول الكويتيُّ ولم يستطع إلاَّ أن يسأل قائلاً:

. ولكِنَّها سليمةٌ تماماً، ولا تحتاج إِلَى إعادة إنشاءٍ أو إعمار!!

. فقال المسؤول الأمريكيُّ: ستضرب غداً.

كيف ستضرب غداً؟ ومن الذي سيضربها؟ ولماذا؟

هذا ما توقف عنده الخبرُ ولم يجب عنه!! ولكنَّ التَّكهُّن بالإجابة لم يكن أمراً معجزاً حينها، ولم يكن يحتاج إِلَى كثيرٍ من البداهة، فقد استنتج البسطاء من النَّاس حينها أنَّ القوَّات الأمريكيَّة هي الَّتي ستضرب هذه المحطَّة.

ولكن رُبَّما كان من الصُّعوبة بمكانٍ حينها إدراك أنَّ الجيش الأمريكي يضرب الأهداف بطريقةٍ مخطَّطةٍ لتحقيق مصالح أمريكيَّةٍ مدروسةٍ. خاصَّةً وأنَّ هدف هٰذه الحرب المعلنة الصَّريحة، على الأقلِّ، كان تحرير الكويت، ولم يكن من المتوقَّع في ظلِّ هٰذا الشِّعار الذي بدا للكثيرين شعاراً نبيلاً أنَّ هناك مخطَّطاً مسبَّقاً قبل احتلال الكويت من قِبَلِ الشَّركات الأمريكيَّة والجيش الأمريكي من أجل ضرب هٰذه المؤسَّسات لتكليف الشَّركات الأمريكيَّة بإعادة إعمارها.

كان من الصَّعب توقُّع ذلك حينها، وليس في ذلك ما يعيب من صَعُبَ عليه هذا التَّوقُّع. أمَّا اليوم، في ظلِّ الحرب العدوانيَّة الأنجلوأمريكيَّة على العراق فقد تغيَّرت الأمور، وتغيَّرت كثيراً، ولم يعد هناك ما يستدعي محض قليل التَّفكير في محاولة التَّكهُّن لأنَّ الحياء الذي كانت تتمتَّع به الشَّركات الأمريكيَّة حينها قَدْ زال الآن وتبخَّر، ولم يبق منه شيءٌ، فكلُّ شيء اليوم يتمُّ بالعلن المطلق من دون أيِّ قيدٍ و شرطٍ أو خوفٍ أو حياءٍ أَو خجلٍ... فمنذ ما قبل اندلا ع الحرب العدوانيَّة على العراق راحت تطالعنا وسائلً الإعلام الأمريكيَّة قبل غيرها عن الصَّفقات الَّتي تمَّت بَيْنَ الشَّركات الأمريكيَّة والمؤسَّسات العسكريَّة والاستخباراتيَّة الأمريكيَّة من أجل النَّجاح في الحصول على عقود إنشاء وإعمار مؤسَّسات محدَّدة؛ النِّفط بميادينه، الكهرباء، الاتصالات، الماء، المرافق، الأغذية، الأدوية... على الرَّغم من أنَّ الحرب لم تكن قَدْ بدأت بعد، وعلى الرَّغْمِ من ظهور الرَّفض العالمي الواضح لهٰذه الحرب؛ جماهيريًّا ومؤسساتيًّا.

وبعد احتلال بغداد واحتلال العراق وإقرار هيئة الأمم المتحدة بذلك رسميًّا، بتسمية العراق بلداً خاضعاً للاحتلال، راحت الإدارة الأمريكيَّة توزِّع عقود الإعمار والإنشاء على من تحب وتشاء وبالحجم الذي ترغب به وتسمح وترضى، وبالطَّريقة الَّتي تناسبها وتسد بها حلوق الدُّول بما يتناسب وحاجة الولايات المتحدة لهٰذه الدول وعدم احتياجها لها، وبما يتناسب مع ما تستحقه هٰذه الدُّول من مكافأةٍ أو عقوبةٍ على مواقفها من الحرب على العراق خاصَّةً ومن الولايات المتحدة عامَّة... فاستأثرت شركات أركان الإدارة الأمريكيَّة أولاً بالدَّسم السَّمين الثَّمين فحازت على عقود بمئات الملايين بل بآلاف الملايين من الدُّولارات، ناهيك عما هو غير معلنٍ ولا معروفٍ حَتَّى للعراقيين أنفسهم والمؤسسات الأمريكيَّة ذاتها... أما الدَّول الأُخْرى وشركاتها، بمن فيهم شركات بريطانيا الحليف الشَّريك الأكبر والمؤازر الوحيد في الحرب على العراق فقد كانت من الفتات...

أمورٌ مدهشةٌ، رُبَّما مرَّت عَرَضاً على قليلٍ أو كثيرٍ، ولكِنَّها أكثر من خطيرةٍ، ولا يجوز أن تمرَّ هكذا من دون تفكير أو تأمُّل وتدبُّر.

ماذا يعني هذا الكلام؟ وبأيِّ حقٍّ أو قانونٍ أو شرعٍ يتمُّ تقاسم إعادة العراق، أو غيره، قبل تدميره، قبل أن يخرب فيه شيءٌ!! بل لماذا يدمَّرُ أصلاً؟!

هٰذا هو السُّؤال المحيِّرُ من النَّاحية النَّظريَّة، المنطقيَّة. ولكنَّ العودة إِلَى الواقع؛ واقع الممارسة الأمريكيَّة، والتَّفكير الأمريكيِّ رُبَّما تزيل هذه الحيرة، ولكن لتصدمنا باللامعقول وتدخلنا في دوامة اللامنطق.

رُبَّما يكون صحيحاً أنَّ هدف هٰذه الحرب هو النِّفط، ورُبَّما يكون صحيحاً أن هدف الحرب هو إزاحة النِّظام العراقي، ولا شكَّ في أنَّ ثَمَّةَ أهدافاً أُخْرَى متفاوتة المقبوليَّة والمعقوليَّة، ولكن أن يكون هدف هذه الحرب هو تحرير الشَّعب العراقيَّ فهذا أمر غير معقول، وغير مقبول حَتَّى وإن كان معقولاً، وقد بات هذا الحكم بحكم البداهة.

وما يفوق ذلك بعدم معقوليَّته هو إنعاش الاقتصاد الأمريكي بهذه الطَّريقة الخالية من أيِّ أخلاق، الخالية من أيِّ إنسانيَّة، من أيِّ إحساسٍ يشير إلَى أنَّ ممارسه يقترب من البشر في شيءٍ من بشريَّتهم!!

لَقَد أقرَّ الإعلام الأمريكيُّ بكلِّ صراحةٍ ووضوحٍ، وعلى لسان المسؤولين على اختلاف مستويات مسؤولياتهم، وبأقلام المفكِّرين والمحللين، أنَّ الاقتصاد الأمريكيَّ يعاني من الرُّكود، وأنَّ الحرب على العراق تهدف إلَى إنعاش هذا الاقتصاد، والطَّريقة الصَّريحة المعلنة لتحقيق هذا الانتعاش هي تدمير المنشآت العراقيَّة؛ الحكوميَّة وغير الحكوميَّة؛ الأبنية، المنشآت الصناعيَّة، الطرق، الجسور... ومن ثَمَّ تكليف الشَّركات الأمريكيَّة المختصَّة بإعادة إنشاء وإعمار هٰذه المرافق الَّتي دمَّرتها الأسلحة الأمريكيَّة، والنَّتيجة الَّتي ستكون هي حصول الشَّركات بموجب عقود إعادة الإعمار على مليارات الدولارات الَّتي ستسهم في امتصاص البطالة الأمريكيَّة، ورفد الاقتصاد الأمريكي بهذه المليارات ونفخ الخزانة الأمريكيَّة بها، الأمر الذي سينعكس في المحصِّلة على إنعاش الاقتصاد الأمريكي ومزيد من الرفاهيَّة للمواطن الأمريكي!!

سيزداد رفاه المواطن الأمريكي، بل أصحاب رؤوس المال الأمريكيون، بسفك دماء الشُّعوب وسلبها أمنها وسلامها وحريتها... وكرامتها... فيما يكون شرفها قَدْ سحق على الطَّريق!!

هنا ستنكشف لنا الأخطاء الَّتي ارتكبتها القوَّات الأمريكيَّة كما زَعَمَتْ، وهنا ستعرف من الذي استهدف المنشآت المدنيَّة الصِّناعيَّة والخدميَّة العراقيَّة، وسنعرف من الذي فجَّر آبار النِّفط... فعلى ضوء هٰذه المخططات المعلنة لم يعد لدينا أيِّ شكٍّ في أنَّ الأخطاء الَّتي ارتكبتها الأسلحة الأمريكيَّة لم تكن أخطاء غير مقصودةٍ وإنَّما نوايا مبيَّتة، وأهداف محددة مسبَّقاً وفق عقودٍ أبرمت مع الشَّركات الأمريكيَّة لإعادة إعمار هٰذه المنشآت... وآبار النِّفط الَّتي اشتعلت لم تشعلها القوَّات العراقيَّة كما زعم المسؤولون الأمريكيون والإعلام الأمريكي، وإنَّما القوات الأمريكيَّة هي الَّتي أشعلتها بناء على عقودٍ أبرمت بمليارات الدولارات مع شركات أمريكيَّة لإطفاء آبار النفط، وهٰذا ما تمَّ التَّصريح به في خضمِّ الحرب العدوانيَّة على العراق... وأيضاً من دون خوف أو خجل!

لو كان هذا الكلام رأياً أَو استنتاجاً من استنتاجاتنا لأمكن القبول بإخضاع هذا الكلام للرأي والمجادلة والقبول والرَّفض... ولكنَّهُ مع شديد حسن الحظ تصريحاتٌ أمريكيَّة غير خجولةٍ... إنَّهُ مخطَّط أمريكي معلن، ولم تخش الولايات المتحدة الأمريكيَّة في ذلك لومة لائم، ولا انتقاد منتقد، ولم تأبه للصورة اللاإنسانيَّة الَّتي ستظهر بها بموجب هذا المخطَّط وهذا السُّلوك.

والذي يؤكد ذلك أَنَّهُ حَتَّى بعد انتهاء الحرب سنَّت سلطة الاحتلال، بل الولايات المتحدة ذاتها من القوانين ما يحول دون السَّماح للشركات الأمريكيَّة ذاتها بالعمل في العراق، اللهم إلا في إطار ما تسمح به الإدارة الأمريكيَّة، ومن ذلك مثلاً منع الشركات المملوكة جزئيًّا لحكومات غير الولايات المتحدة من المزايدة على ثلاثة تراخيص لتشغيل شبكات اتصالات الهواتف المحمولة في العراق، وهذا ما عدته معظم الدُّول الأوربيَّة خطوةً تعطي الشركات الأميريكية اليد الطُّولى للاستثمار في هذا المجال على حساب نظيراتها الأوربية والعربية[٩].

وفي يوم الخميس ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٣م وافقت السُّلطات الأمريكية الَّتي تسيطر على النفط العراقي على خطَّة استثمارات حجمها ١,٦ مليار دولار لشركات أمريكية بهدف زيادة إنتاج النفط العراقي إلى ثلاثة أمثاله تقريباً، وذلك بحلول شهر أبريل/ نيسان من العام القادم أي عام ٢٠٠٤م.

وفي يوم الأربعاء ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٣م أبرم العراق عقوداً مع شركات أمريكية لشراء نفط خام البصرة... ولا ندري من الذي وقع العقود وبأي صفة، إذ لا يوجد حَتَّى الآن حكومة مفوضة ولا غير مفوضة...!!

هٰذا وجهٌ من أوجه العدوان الأنجلوأمريكي على العراق؛ قتل ما أمكن وجرح ما أمكن من المواطنين العراقيين لتشغيل مصانع الأدوية الأمريكيَّة، وتدمير ما أمكن في العراق لإتاحة الفرصة أمام الشَّركات

(٩) . صدر هذا القرار في ١٠/ ٨/ ٢٠٠٣م.

الأمريكيَّـة لإعـادة إعمـاره الاقتصـاد الأمريكـي وانتشـاله مـن الرُّكـود علـى حسـاب الشَّـعب العراقـي، وعلـى دمائـه الَّـتي سـفحت علـى ضـفاف الرَّافدين، وعلى أعتاب التَّاريخ.

والمضحك المبكي أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة ستأخذ ثمن الأسلحة الَّتي دمَّرت بها العراق، وأجور الجنود الذين دمَّروا العراق، وثمن أغذية الجنود الذين دمَّروا العراق، وتعويضاتٍ للمقتولين منهم بنيران صديقة أَو معادية... من أموال الشَّعب العراقي!!

هل بعد هذه المفارقة مفارقة؟

وهل ثَمَّةَ أغرب من هذا السُّلوك سلوك؟

وهل نحتاج إِلَى أكثر من ذلك حَتَّى نَسِمَ عالمنا بأنَّهُ عالم مجنون؟

من احتاج إِلَى دليلٍ أكبر من هذا الدَّليل فمن المؤكَّد أَنَّهُ سيجده عند أقرب طبيبٍ نفساني.

على أيِّ حالٍ هو درسٌ لنا وللتاريخ.

ومن لم يتَّعظ بغيره وعظ الله به.

★ ★ ★

★ ★ ★

اليورانيوم

والعقلية الغربية الغريبة

هل يهمنا كثيراً أو قليلاً أن نتحدَّث، أو نتساءل، أو نفكر في مصير مستقبل حلف شمال الأطلسي بعد الأزمة الكبيرة التي أحدثها اكتشاف استخدام قوات الحلف، وخاصَّة الأمريكان والإنجليز، اليورانيوم المنضب في البلقان؟

نخطئ، بل نخدع أنفسنا إن لم نتجاوز الظَّن إلى الاعتقاد بأنَّ مصير حلف شمال الأطلسي يهمنا كما يهمُّ العالم كله، وربما أكثر. ونخطئ كذلك إن لم نعر هذا الموضوع مزيداً من الأهميَّة والعناية والاهتمام، وإن لم نسع إلى التفاعل المثمر لنا مع ذلك.

ومن ثم، وبالقياس على ذلك تماماً نقف عند الازدواجية الغربيَّة في التَّعامل، فنتساءل: هل يهمنا كثيراً أو قليلاً، ونحن أمام مثل هذه المشكلة، أن نتحدَّث، أو نتساءل، أو نفكر في الازدواجيَّة الغربيَّة، على العموم، وفي قضية اليورانيوم المنضب؛ ما بين استخدامها من الحلف والكيان الصهيوني ضدَّ العرب في العراق ولبنان وفلسطين، واستخدامها في البلقان؟ فقد ثارت ثائرة العالم الغربي خصوصاً، على مختلف مستوياته وتباينها، والعالم كله عموماً؛ فشكلت اللجان، واستنفرت المشافي والمخابر والمعامل ووكالات الاستخبارات ووسائل الإعلام... بسبب اكتشاف ست حالات، وصلت إلى ثلاثمئة، من سرطان الدَّم النَّاجم عن استخدام اليورانيوم المنضب، كانت بين الجنود الإيطاليين الذين شاركوا في حرب البلقان بادئ الأمر، ثمَّ ظهرت مثلها

بين جنود بعض الدول الأخرى. وفي مقابل ذلك تماماً مضت نحو عشر سنوات من استغاثات الشعب العربي في العراق من الآثار الفاجعيَّة النَّاجمة عن استخدام اليورانيوم المنضب؛ من عشرات آلاف السَّرطانات بأنواعها المعروفة وغير المعروفة التي أدى إليها استخدام المتفجرات الإشعاعيَّة، إلى عشرات آلاف التَّشوهات الولاديَّة المسخيَّة والعجائبيَّة التي لم يعرف تاريخ البشريَّة لها مثيلاً، إلى القضاء الكامل على كل حرث ونسل لحيوان ونبات في بعض أماكن استخدام هذه الأسلحة التي يعجز اللسان عن وصف قذاعتها... كل ذلك من دون أن يحرك الغرب ساكناً، أو يعير الأمر التفاتةً...!!

والأدهى من ذلك، والأكثر مأساويَّة، أنَّ العرب أنفسهم قلما اهتزَّ لمعظمهم جفنٌ من معاناة الشَّعب العربي في العراق بسبب هذه المآسي، وبسبب غيرها، فيما لما ثارت ثائرة الغرب على استخدام اليورانيوم المنضب في البلقان ثارت ثائرة العرب معهم؛ استنفاراً واحتجاجاً وتعاطفاً وتضامناً ومساعدات للمنكوبين...!! ولذلك، لعله كان من باب تعاطف العرب مع الغرب أنَّ العرب لم يهبوا، أو يفكروا بخرق الحظر والحصار على العراق إلا بعدما قام بعض من الأوربيين؛ أفراداً ودولاً بخرق هذا الحظر.

أعود فأكرر هنا أيضاً أنَّنا نخطئ، بل نخدع أنفسنا إن لم نتجاوز الظَّن إلى الاعتقاد بأنَّ الازدواجيَّة الغربية في التعامل تهمنا كما يهمُّ العالم كله، بل وأكثر. ونخطئ كذلك إن لم نعر هذا الموضوع مزيداً من

الأهميَّة والعناية والاهتمام، وإن لم نسع إلى التفاعل المثمر لنا مع ذلك...

ولكن لا الحديث في الازدواجيَّة الغربيَّة، ولا الحديث في مصير حلف شمال الأطلسي، يحمل أيَّ معنى أو أهميَّة أو قيمة أمام الحدث بحدِّ ذاته، أمام استخدام اليورانيوم المنضب سلاحاً، لا في حسم المعارك في العراق، ولبنان، وفلسطين، والبلقان، كما حدث في اليابان إبَّان الحرب العالميَّة الثَّانية، فالمعارك والمواجهات هنا كانت محسومة نظرياً، وإنَّما استخدم اليورانيوم لأغراض ربما لا تقبل شياطين الجن القبول بها، ولا تجرؤ على التَّفكير فيها؛ التجريب، لكي تجرب فاعلية هذا السلاح في البشر، مع العلم بنتائجه وآثاره.

وما نتائج استخدام اليورانيوم، وما آثاره ؟

هذا ما يضع العقل في الكف، إن بقي من العقل ما يستحقُّ أن يوضع في الكف !! ربَّما يحتاج الأمر إلى مزيد من الشرح والتَّشريح، وربَّما يستوجبُ مزيداً من التَّفصيل والتَّوضيح، ولكنَّ قليل الكلام يكفي، لأنَّ أقلَّ قليل الكلام عن الآثار والنتائج النَّاجمة عن استخدام اليورانيوم يربك العقل، ويحرج المنطق، ويجرح الإنسانيَّة جراحاً يتعذر التئامها... يكفينا أن نعلم أن أي قرب لأيِّ كائن من العناصر المشعة، مثل اليورانيوم، والراديوم، والبلوتونيوم... يعرضه لمخاطر فاجعيَّة؛ أمراض وتشوهات... متأبية على العلاج، الموت أرحم منها بملايين المرات، والموت هو خاتمة مطافها على كلِّ حال. ويكفينا أن نعلم أن أخطار العناصر المشعَّة لا يحول دونها حائل، ولا تقف أمامها

مناعة، ولا يستثنى منها حي؛ إنسان، حيوان، نبات. ويكفينا أن نعلم أن تطهير أماكن استخدام العناصر المشعة أمر متعذر حتَّى الآن. ويكفينا أن نعلم أن التفاعلات الإشعاعيَّة لهذه العناصر تستمر مليارات السنين لا ملايين كما أكدَّ العلماء المختصون.

وماذا نريد أكثر من ذلك ؟ وماذا نريد بعده ؟ ومن ثمَّ أمن الضروري أن يكون اليورانيوم كامل النَّشاط، غير منضبٍ أو مستنفد، حتَّى تستحق الواقعة لفظ جريمة ؟ أم أنَّ استخدام اليورانيوم المنضب يخفف الجريمة على أساس أنَّ فاعليته قد خففت كثيراً جدًّا ؟ بل ما الذي يدرينا أن يكون اليورانيوم مخصَّباً لا عاديًّا ولا منضباً ؟!! لا فرق في ذلك أبداً لأنَّ النتائج السابقة هي النَّاجمة، حسب تأكيدات العلماء، عن استخدام اليورانيوم المنضب لا العادي، ولا المخصب. ومهما يكن من أمر فإنَّ معطى واحداً من هذه المعطيات يحمل بذاته أكبر دليل على انعدام أي حسٍّ إنساني، في أبسط تقدير، عند من يفكر باستخدام العناصر المشعة ضد عدوه... فكيف استخدمت هذه الأسلحة ولماذا ؟ وأي بشر هؤلاء؟ وأي عقول هي التي تسيرهم؟ وأي منطق هو الذي يقودهم؟ إنَّها أحجية يتعذر على العقل حلها، لأنَّها ربما تكون بلا حل، وكيف يمكن أن يقبل العقل أي عذر في اللجوء إلى مثل هذا النَّوع من العذاب لكل حي؛ تشوهات تذهل البشر، تبكي الحجر، أمراض يفضل أصحابها الموت عليها!! هذا النَّوع من العذاب الذي يكون الموت أرحم منه بملايين المرات؟!

لقد تخيلنا كائنات أخرى في الفضاء، وتخيلنا أنَّهم يريدون إبادة سكان، وتخيلنا كل ما يمكن تخيله من الأسلحة التي سيبيدون سكان الأرض بها، ولكننا لم نستطع تخيل أنَّهم من الممكن أن يستخدموا العناصر المشعة في الإبادة،لأنَّ ذلك يعني إعدام إمكانية أي حياة عليها.

رُبَّما يستدعي عودة إلى التَّاريخ؛ عودة إلى المسرحين اليوناني والروماني، إذ كانت مشاهد الموت، والقتل، والإعدام تجسد تجسيداً حقيقيًّا على خشبة المسرح، ليس من أجل المصداقية في التَّمثيل، بل تعبيراً عن العنجهية الغربية، وعدم اعترافهم بغيرهم من البشر بأنَّهم بشر، لأنَّ الذين كانوا يمثلون هذه الأدوار هم من العبيد، من غيرهم من البشر الذين هم في نظرهم من غير البشر. ويتَّصل هذا التَّاريخ بمحاكم التَّفتيش، وإبادة الهنود الحمر بمطاردتهم مطاردة الطَّرائد من الحيوانات، وجرائم الصِّرب في البوسنة والهرسك... وفي مقابل ذلك تماماً نجد وصيَّة **أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد** وجيشه عندما قال:

«يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمآكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع؛ فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم

يـأتونكم بآنيـة فيهـا ألـوان الطعـام، فـإن أكلـتم منهـا شـيئاً بعـد شيء فاذكروا اسم الله عليها... اندفعوا باسم الله...»

ومثـل ذلـك سـلوك **صـلاح الـدين الأيـوبي** في حروبـه مـع الفرنجـة (الصـليبيين) إذ كـان يسـقى جرحـى العـدو المـاء بيديـه، وينقـل المـاء للأسرى بنفسه.

لـن نقـارن بـين ضـربي السُّـلوك هـذين لأنَّ مثـل هـذه المقارنـة جـائرةٌ مـن دون شـك، وأكثـر مـن جـائرة... أمَّـا اسـتخدام اليورانيـوم المنضـب فإنَّـه ممـا لا يقبـل أي مقارنـة، ومهمـا وجـدنا مـن أسـباب وراء اسـتخدام هـذا السـلاح فإنَّنـا سـنظل عـاجزين عـن الاقتنـاع بهـا، لأنَّـه لا يوجـد سبب يمكـن أن يسـوغ بـأي صـورة مـن الصُّـور هـذا السـلوك الـذي سـيظل من غير أي تفسير!!!

لماذا... لماذا... ثم لماذا؟

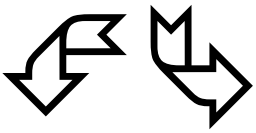

إن كانت السَّنوات الخمس عشرة الأخيرة من القرن العشرين قَدْ حَفَلَتْ بأحداثٍ جسامٍ زلزلت المنظومة السِّياسيَّة العالميَّة، وهزَّت الكيان الجغراسي[١٠] والجغراتيجي[١١] العالمي فإنَّ السَّنوات الثَّلاث الأولى من القرن الحادي والعشرين قَدْ حَفَلَتْ بأحداثٍ أكبر من خطيرةٍ، وأعظم من عظيمة، زلزلت الأخلاق وداست الضَّمائر وأفقدت الإنسانيَّة ثقتها في الإنسان... وزعزعت إيمان الإنسان بما يسمَّى قيماً إنسانيَّة.

لا عجب، فإنَّ الأحداث الَّتي غيَّرت الخرائط الجغراسيَّة والجغراتيجيَّة العالميَّة في السَّنوات الأخيرة من القرن العشرين هي الَّتي كانت التَّمهيد المباشر لهٰذه الأحداث الَّتي دُشِّن بها القرنُ الحادي والعشرين.

---

(١٠) . جغراسيا اصطلاح هو الاصطلاح المقابل لاصطلاح (Geopolitics) الذي يعني الجغرافيا السياسية، وقد نحتناه من الكلمتين جغرافيا وسياسة، واستخدمنا لأول مرة في كنابنا كيف ستواجه أمريكا العالم الذي صدر في طبعته الأزلى عام ١٩٩٢م، ولم يكن أحد . فيما أعلم . يستخدم الاصطلاح الذي نحتناه، وصار اليوم شائعاً، وإنَّما استخدمت في الترجمات العربية اللفظة الأجنبية ذاتها (جيوبوليتيكا)، وقد اكتفى بعضهم بتعريب نصفها الأول فَقَطْ فقال (جغرابوليتيكا). ولقد آثرنا أن نعرِّب هذا المصطلح إلَى (جغراسيا)، ناحتين إياه من جغرافيا وسياسة، كما في الاصطلاح الأجنبي ذاته المنحوت من هاتين اللفظتين. ولقد آثرنا أيضاً أن نأخذ النصف الأول من اللفظتين لأنَّ ذلك أقرب إلَى جو المصطلح وإيقاعه، وإن كان الشائع في النحت أن يؤخذ النصف الأوَّل من الأوَّل والنصف الثاني من الثاني، لأن التركيبة النحتية هنا (جغراسة) تبدو نابية عن الذوق اللغوي المألوف لدين.

(١١) . كذلك تماماً كان شأن الاصطلاح Geostrategy، وقد آثرنا تعريبه إلَى (جغراتيجيا) نحتاً من جغرافيا واستراتيجيا، وإن كانت استراتيجيا في الأصل غير عربية، ولكن دَرَجَ الباحثون على استخدامها كما من دون تعريب.

إنَّ زوال القطبيَّة الثُّنائيَّة بانهيار الاتحاد السوفيتي، ومن ثَمَّ انتهاء الحرب الباردة، وتفرُّد الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بزعامة العالم، كلمة سهلة النُّطق باللسان، ولكِنَّها في واقع الأمر ليست سهلةً أبداً، وليست محض كلمةٍ تقال، إنَّها وقائع كارثيَّة على العالم، ونتائجها ليست أقلَّ منها كارثيَّة على الإطلاق.

من النَّتائج المباشرة للتَّفرُّد الأمريكي في الهيمنة العالميَّة سعي بل تفرُّد الولايات المتَّحدة في إعادة بناء الاصطلاحات والمفاهيم والقيم، ولو أنَّ في إعادة البناء هٰذه شيءٌ من المنطقيَّة أو العقلانيَّة، أو أقلَّ نفحة من رائحة المعقول، لما كان هناك ما يستدعي الدَّهشة أَو التَّوتُّر أو التَّشنُّج الذي يؤدِّي إلَى تصلُّب الشرايين وتخثر الدِّماء في الأوردة.

إنَّ الدَّلالات الأمريكيَّة الجديدة للاصطلاحات والمفاهيم والقيم دلالات مرعبة حقًّا، وتضع العالم على حافة هاويةٍ سحيقةٍ ما لها قاعٌ ولا قرارٌ!! إنَّها تضعُ العالم على كفِّ عفريتٍ كما تقول العامَّة.

قَدْ يكون للممارسة الازدواجيَّة والمعايير المزدوجة ما يجعلها متقبَّلة بمعنى أو آخر إذا نظرنا إليها من الزَّاوية الحادَّة، الضيِّقة، الَّتي يرى صاحبها إلَى الأمور من خلالها، ولكنَّنا لا نستطيع أبداً الزَّعم أنَّ الازدواجيَّة أمرٌ متقبَّلٌ عقليًّا أَو منطقيًّا أو أخلاقيًّا، ولا نستطيع إلا أن نؤكِّد أنَّ صاحب النَّظرة الازدواجيَّة هٰذه إن لم يدرك أَنَّهُ يقفز فوق أطر المنطق والعقل فإنَّهُ بحاجة إلَى صيانة دماغه وتنظيفه. أمَّا إن كان يدرك أَنَّهُ يقفز فوق ضوابط المنطق والعقل فإنَّهُ سيدرك أَنَّهُ إنَّما يمارس هٰذه الازدواجيَّة بسبب ضعف حجَّته وقلَّة

حيلته لأنَّهُ لو كان قوي الحجَّة سديد الدليل فإنَّهُ لن يكون أبداً بحاجة إِلَى الوقوع في أشراك هٰذه الازدواجيَّة. ورُبَّما لا يحتاج هٰذا الكلام إِلَى ما يؤَكِّده لأنَّهُ مؤَكَّدٌ بحكم المنطق والعقل.

مرَّة أُخْرَى أقول، وإن كان على مضض: يمكن تقبُّل الازدواجيَّة في المعايير والتَّعامل إن كانت محصورةً في حدودٍ دنيا من المفارقة واللامعقول. ولكن أن تصل الازدواجيَّة إِلَى حدٍّ يكون اللامعقول ذاته معها معقولاً، واللامقبول معها مقبولاً بل من كبريات النِّعم... فهٰذا أمر لا تطيقه النَّفس ولا تستطيع معه أن تملك نفسها من الانفطار غيظاً وحنقاً... وهٰذا ما وصلت الممارسة الأمريكيَّة اليوم في صوغها المفاهيم والأعراف والتَّقاليد.

إذا أردنا أن نبدأ بعدِّ الممارسات الازدواجيَّة أو المعايير المزدوجة في سياسة الولايات المتحدة الأمريكيَّة فإنَّ البدء سيكون سهلاً بكلِّ تأكيد ولكنَّ التَّوقُّف عن العدِّ لن يكون سهلاً أبداً وبكلِّ تأكيد أيضاً.

سنتجاوز كلَّ ما مضى على كثرته الَّتي يصعب عدها أَو إحصاؤها، ونتوقَّف فَقَطْ عند تداعيات الحرب العدوانيَّة على العراق الَّتي انتهت بما انتهت إليه من خرابٍ ودمار وتشجيع عصابات السَّطو والسَّلب والنَّهب.

منذ ما قبل بدء الحرب العدوانية على العراق راحت تروِّج الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في وسائل إعلامها أنَّ الدول المجاورة للعراق لن تمنع

استخدام سمائها وأرضها وبحارها وأنهارها لأنَّها لن تستطيع ذلك... وكانت الذَّريعة في ذلك أنَّ هٰذه الدُّول لن تستطيع منعها من ذلك إمَّا لعدم قدرتها على هٰذا المنع أَو لأنَّها سماءٌ دوليَّة! ومعابر دوليَّة! ومنع استخدامها يعدُّ خرقاً للقانون الدُّولي، وهذا الخرق للقانون الدُّولي يعرِّضُ صاحبه للعقوبات الدُّوليَّة وإلى وضع هذه المعابر والسَّماوات والأرضين تحت الوصاية الدُّوليَّة...!!

أما السَّماء الأمريكيَّة خاصَّةً والغربيَّة عامَّة فإنَّها خارج القوانين الدُّوليَّة، ولا يسمح للطيران ورُبَّما الطَّير أن يطير فوقها، بل حَتَّى الأقمار الصِّناعيَّة الَّتي تكون في أعالي السَّماء لا يسمح لها أن تدور فوق السَّماء الأمريكيَّة!!

نحن نتفهَّم، أو نتقبَّل أن تكون السَّماء الأمريكيَّة، الأرض الأمريكيَّة حمى أمريكيًّا لا تسمح الولايات المتَّحدة لأحدٍ بالتَّعدي عليه بأي طريقة من الطُّرق. ولكن بأيِّ حقٍّ، وبأيِّ قانونٍ، وبأيِّ شرعةٍ تجوز هذه الازدواجيَّة:

لماذا تعدُّ أرضنا أرضاً دوليَّة لا يجوز لنا التَّصرُّف فيها بحريَّة، ولا بما يتوافق مع مصالحنا ومنافعنا، فيما تعدُّ أرضهم مقدَّسةً لا يحقُّ لغيرهم المساس بها؟!

لماذا تعدُّ معابرنا البريَّة والبحريَّة والجويَّة معابر دوليَّة لا يجوز لنا إغلاقها ولا التَّحكم بها بما يتوافق مع مصالحنا ومنافعنا فيما تعدُّ معابرهم البريَّة والبحريَّة والجويَّة محميَّة مقدَّسة لا يحقُّ لأحدٍ المساس بها؟!

لماذا يعدُّ نفطنا ثروة لكلِّ البشر ولا يحقُّ لنا التَّحكم بها، فيما يعدُّ نفطهم مقدَّساً لا يحقُّ لأحدٍ التَّدخُّل أو حَتَّى محض التَّفكير في التَّدخُّل فيه؟!

لماذا يحقُّ لهم السَّيطرة على نفطنا وثرواتنا ولا يحقُّ لنا نحنُ السَّيطرة على نفطنا وثرواتنا؟ وأيُّ عقل هو الذي يمكن أن يتمالك نفسه من الغثيان أو التَّقيؤ من محض إدراك ذلك؟!!

لماذا يعدُّون إنسانهم إنساناً وإنساننا كلباً؟!

لماذا يحقُّ لهم قتلنا ولا يحقُّ لنا الدِّفاع عن أنفسنا؟!

لماذا يكون تعويض قتيلهم الذي نتَّهم به زوراً مئتي مليون دولار أَو على الأقل عشرة ملايين دولار تضاف إليها الفوائد المترتبة على المبلغ ما بين القتل والدَّفع، فيما يكون تعويض من يقتلونه منا مئتي دولار، أو أقل، تُدفع على هيئة معونات وصدقات بالقطَّارة والباقي بالتَّقسيط من دون فوائد؟!... إذا قبلوا أن يدفعوا أصلاً!!

لماذا يعدُّ اعتداؤهم على أيِّ شعب في العالم تحريراً ويعد دفاعنا عن حقوقنا إرهاباً؟!

لماذا يعدُّ قتلهم ملايين البشر خدمة للإنسانيَّة وإذا حاولنا إيواء لاجئ ضعيف مستغيث كان ذلك مناصرة للإرهاب؟

هل هم فعلاً بنو آدم ونحن من بني غير آدم؟

ليس من الغريب أبداً أن نجدهم يؤمنون بذلك ويعتقدونه، أَو يربون أبناءهم على هذا الاعتقاد، أو يصورونا في إعلامهم على أننا كذلك... على أننا لسنا من البشر!!

فهل سنصدقهم في ذلك ونتمسَّك بذيلهم ليحولونا إِلَى بشرٍ بعطفهم كما يقولون؟!

سؤالٌ للأسف مطروح بجديَّة، وللأسف ينتظر الإجابة من الجماهير العربيَّة من محيطها إلَى الخليج، لأنَّ هذه الجماهير، وللأسف أيضاً ما زالت تفكِّر في الإجابة... فمتى ستكون الإجابة؟ نرجو ألاَّ يطول الزَّمان بها، فكلُّ لحظة تأخُّر ستعقبها سنواتٌ من الذُّل... وأظنُّ أننا أمةٌ لا تحب الذل.

_✯_✯_

_✯_

الأمريكان

والبطولات الهوليودية

كثيراً ما كان يكرِّر **جورج بوش الابن** وقادته عن جندهم في العراق قولهم: وكان أداؤهم ممتازاً. ثُمَّ راح **جورج بوش الابن** يكرِّر ذلك في زياراته لمواقع الجيش، ويصفِّق له الجنود تصفيقاً عالمثالثياً حاراً...

هل يعرف **جورج بوش الابن** الحقيقة ويكذب أم أنه لا يعرف؟

إن كان **بوش الابن** يعرف فتلك مصيبة له وللشعب الأمريكي. وإن كان لا يعرف فتلك أيضاً مصيبة له وللشعب الأمريكي.

من حق الشعوب أن تفخر ببطولات أبنائها، ومن حق الشعوب أن تصور بطولاتها بأبهى الصور وأكثرها إشراقاً... ولكن عندما تكون لها بطولات حقًّا أو على الأقل أشباه بطولات. أمَّا إذا كان أبطالها من ورق، وجندها جبناء، فإنَّ في الأمر إنَّ، وإنَّ وراء الأكمة ما وراءها. وأقلُّ ما يمكن أن يقال إنهم يصنعون أوهاماً ويصدقونها ويطلبون من العالم تصديقها بل يفرضون على العالم تصديقها. إنهم في حقيقة الأمر يعانون من عقدة النقص والخوف والجبن فيزعمون أنهم أصحاب بطولات أسطوريَّة تفوق الخيال، كما يصورهم رئيسهم **جورج بوش الابن** وأسلافه، وكذلك غيره من القادة الأمريكيين، وكذلك تفعل السينما الأمريكيَّة.

نحن لا نبالغ في الوصف والتَّصوير. هذه هي الحقيقة التي قل من يراها أو يريد أن يراها. ليس هناك من هم أكثر جبناً من الجيش الأمريكي في العالم اليوم إلا الذين يخافون من الجيش الأمريكي غباءً.

لننظر في السينما الأمريكية التي نشأ **جورج بوش الابن** على ثقافتها والقيم والصور التي تصدرها للعالم.

تصوِّر السِّينما الأمريكيَّة الجيش الأمريكي أبطالاً أسطوريين خارقين للمستوى البشري، لا يهزمون ولا يخافون شيئاً مهما كان عظيماً، ويخوضون غمار مغامرات وبطولات يعجز عنها بني البشر، ويقتحمون أهوالاً يخشى منها العظماء... وما أكثر الأفلام بل كل الأفلام الأمريكية تسعى لإثبات وهم واحدٍ على أنه حقيقة بتصوير البطل الأمريكي الذي يهزم جيشاً كاملاً ورُبَّما دولة كاملة... تعجز الجيوش عن أن تهزم رجلاً أمريكيًّا واحداً... كل الظروف والمصادفات تخدم هذا الرجل الأمريكي الذي يبدو أسطورة في البطولة واقتحام الأهوال والانتقال من نصر إلى نصر... لا يفرغ مسدسه من الرصاص، وإذا فرغت أسلحته من الذخيرة كانت حنكته ودهاؤه قادرة على تجاوز الجيوش وإلحاق الهزيمة بها...

تصوير أكثر من أسطوري، تابعوا الأفلام الأمريكيَّة وتأكدوا من هذه الصورة، وإلى جانب ذلك تصورهم السينما الأمريكية أيضاً على أَنَّهم رهبانٌ وقديسون وفرسان نبلاء لا يقتلون طفلاً ولا امرأة ولا أعزلاً، حَتَّى الخصم المجرد

من السلاح فإنهم يعاملونه معاملة حسنة ويكرمونه، بل إنهم لا يقبلون أن يقتلوا العدو إلا إذا فرض عليهم العدو أن يقتلوه بالإكراه الشديد، وتصورهم على أنهم أرباب التضحية والفداء لإنقاذ طفل من أطفال العدو أو امرأة أو عجوز...

ظلت السينما الأمريكية عشرات السنين تصور البطولات الأمريكية في فيتنام حَتَّى استنفدت كلَّ الأفكار الممكنة... فانتقلت إلى الحرب العالمية الثانية ثُمَّ في كوريا واليابان وإفريقيا والقارة الأمريكية الجنوبية ثُمَّ الدول الاشتراكية وأخيرا انتقلت إلى العراق والعالم العربي في أفلام حربيَّة أو استعراضية مختلفة الموضوعات مجتمعة الغرض وهو تأكيد الصورة السابقة للرجل الأمريكي الذي يتسم أيضاً بأنه لا يخدع ولا يغدر ولا يخون ولا يستسلم ولا ينسحب ولا يهرب من الواجب الإنساني...

فهل هذه هي صورة الأمريكي على أرض الواقع؟

هذه الصورة هي التي يرددها **جورج بوش الابن** وجوقته، وكذلك كان أسلافه، ولكنَّ الحقيقة عكس ذلك تماماً.

لقد شاهدنا الجنود الأمريكيين في العراق كيف يرتعدون خوفاً ويفرون فرار الجرذان أمام أي قرقعة صغيرة يسمعونها وهم يداهمون بيتاً صغيراً، أو (خرابة) مكشوفة، على الرغم من أنَّهم محمَّلون بكلِّ عتادهم وأسلحتهم وأجهزتهم الإلكترونيَّة، والبيت الذي يداهمونه أو (الخرابة) مكشوفة بوضوح، ومهما كان فيها من جند أو عتاد لا يساوي شيئاً أمام جاهزيتهم.

صوت قطة صغير، أو نباح كلب قصير، أو صفير هواء، أو سقوط حصاة من مشيهم على قطعة معدنيَّة... أو أي شيء من هذا القبيل كان كافياً لترى دورية أو مجموعة المداهمة الأمريكية وهم يهربون ويتناثرون وينبطحون ولا يجرؤون على العودة إلى المكان إلا بعد نسفه نسفاً لا يبقي حجراً على حجر. بل إنهم وهم في معسكراتهم عند أي صوت انفجار يهرعون هاربين مخلين المكان تاركين وراءهم (صبابيطهم)، وحَتَّى أسلحتهم و(كلاسينهم)...

فما قصَّة البطولات التي نسمع عنها إذن؟

الحقيقة أنَّ البطولات التي نسمع عنها والقتلى الذين نسمع عنهم، الذين يقتلهم الأمريكان هم بالإحصاءات الرَّقميَّة من الأبرياء الذين لا علاقة لهم بالمقاومة بنسبة تزيد ولا تقل عن ٩٩%، ومن هذه النسبة أكثر لا أقل من ٥٠% من الأطفال والنساء. وأكثر من ٨٠% من هذه الحالات هي حالات قتل وحشي لأناسٍ لا شكَّ أبداً في أنهم غير مسلحين وهم في وضعيات وحالات مسالمة صريحة لا تدعو أبداً إلى التخوف من كمين أو شك في تسلح أو غير ذلك. ويمكن القول تجاوزاً ومبالغةً أنَّ نحو ١٠% من القتلى قتلوا في حالة اشتباه مع كونهم أبرياء.

الملاحظ أنَّ النسبة الأكبر من هؤلاء الشهداء الأبرياء كانت تقتل بقصف الطائرات والصواريخ وليس بالاشتباك كما يصورون، وقد شاهد بل علم العالم كله كيف كانت تباد مدن عراقيَّة بكاملها لوجود بعض المقاومين فيها، كما حدث في الفلوجة والرمادي، وغيرها... تباد

المدينة كلها لقتل بعض المقاومين. ويزعمون بعد ذلك أنَّ (الإرهابيين) فقط هم الذين قتلوا.

هذه أشياء شاهدنا أبعاضاً من على شاشات التَّلفزة العالميَّة وليست أخباراً متناقلة، وهي لا تفترق عن الأخبار التي سمعناها إلا في أنها أقل من الواقع بكثير جدًّا لأنَّ آلات التصوير التلفزيونية لم تلتقط إلا الفتات مما يحدث، لأن الجيش الأمريكي حريص على القيام بعملياته العسكرية بعيداً عن الرقابة الإعلاميَّة، ونتذكر الآن كيف أنَّ الجيش الأمريكي منع دخول الصحافة والإعلام إلى أرض المعركة وكان هو الذي يزود الإعلام بالأخبار والصور التي يراها مناسبة.

الجنود الأمريكيون فعلاً أبطال، ولكن على العزل والشيوخ والأطفال. أبطال في المساحات المفتوحة التي تكشف لهم كل شيء فيرون أن لا شيء يخافون منه، فتتصاعد هنا هممهم البطولية وبطولاتهم الأسطوريَّة. ولذلك لا عجب أن تجد أمريكيًّا هو الطيَّار **سيلفيان كوانتوجيريمس** يقول: «قبل ذهابي إلى العراق، كنت أشعر أنَّني أمريكيٌّ عظيمٌ، ولكنَّني أدرك الآن أن الأمريكيَّ معزولٌ وغير مرغوبٍ فيه»[١٢].

---

١٢ . تومان عليلي: **أشعر بالعار لأني أمريكي؛ لقاء مع الطيار الأمريكي سيلفيان كوانتوجيريمس .** نشر في مجلة **إيدنليك** التُّركيَّة في العدد ٧٤٤ الصَّادر بتاريخ ٢١/٩/ ٢٠٠٣م . ترجمة وإعداد: الدكتور محمد يوفا والدكتور بسام أبو عبد الله: **جريدة تشرين** . دمشق . عدد يوم الثلاثاء ٦ كانون الثاني ٢٠٠٤م. **انظر تفاصيل اللقاء في الفصل الأخير من هذا الكتاب الذي يحمل عنوان: أشعر بالعار لأني أمريكي.**

لـن نكثـر مـن شـواهدنا الـتي شـاهدناها وشـاهدها مثلنـا الكثـيرون جـدًّا، سنستشـهد بالضـباط والجنـود الأمـريكيين أنفسـهم، وعـددهم في الحقيقـة أكثـر مـن أن يحصـى، لننظـر في شـهادة الطيـار الأمريكـي **سـيلفيان كوانتـوجيريمس** الـذي فـرَّ مـن العـراق، ومثلـه فعـل مئـات الضـباط وربَّمَـا الآلاف، الـذي يقـول[١٣]: «إنَّ معظـم الجنـود يرغبـون في الفـرار... كنَّـا نخسـر يوميًّـا عـدداً جديـداً مـن الجنـود والأصـدقاء... ويتـابع قـائلاً: كنَّـا نقـتحم المنـازل في الليـل ونسـبب الإربـاك والإزعـاج للمـواطنين، ولا تغيـب عـن ذاكـرتي تلـك الطِّفلـة العراقيَّـة الـتي توفيـت خـلال إحـدى عمليَّـات الاقتحـام بسـبب الخـوف والـذُّعر الـذي أصـيبت به.

ويتـابع أيضـاً: كـان اللبـاس العسـكري الـذي نرتديـه ثقـيلاً «وكأنـك ذاهـب إلى القمـر» حَـتَّى أنَّـك لا تسـتطيع أن تحـكَّ جلـدك إذا رغبـت بـذلك، وهـذه البـزَّات العسـكريَّة تعـبِّر عـن الحالـة المعنويَّـة السَّـيئة وعـن الخـوف الشَّـديد، في وقـت نحـارب مـواطنين عـراقيين عـاريي الأقـدام. لكنَّك لا تقرأ في عيونهم الخوف والرُّعب.

ويتابع: كنَّا نشاهد يوميًّا منظر القتلى العراقيين، وحَتَّى الجثث الملقاة في الشَّوارع ويصعب عليَّ كثيراً أن أتحدَّث عن أعمال التَّعذيب التي كنَّا نمارسها ضدَّ الأسرى العراقيين... استخدمنا كلَّ الأساليب التي تشعر الأسير بالذُّلِّ

---

١٣ . انظر تفاصيل هذا اللقاء في الفصل الأخير من هذا الكتاب الذي يحمل عنوان: **أشعر بالعار لأني أمريكي.**

والهوان... كنَّا نضع كيساً قماشيًّا في رأس الأسير ونستخدم الأغلال البلاستيكيَّة التي تسبب الحروق نتيجة للحرارة المرتفعة وجروحاً عظيمة في رسغ اليد، لقد جرَّبنا ذلك أحياناً على أنفسنا ولم نتمكَّن من تحمُّل هذه الأغلال لدقائق إذ إنَّها كانت تسبب الحروق والحك الشَّديد والجروح العميقة»[١٤].

فإذا تركنا الطيار **سيلفيان كوانتوجيريمس** وجدنا أننا أمام مئات النَّماذج المشابهة، منها على سبيل المثال الرائد **جيمي ميسي**[١٥] الذي ما إن غادر العراق حَتَّى استيقظ ضميره، وحاول تبرئة ذمته بتأليف كتاب عما كان يدور في العراق، عن السلوك العسكري الأمريكي في العراق، فوضع كتاباً بعنوان: اقتل اقتل اقتل؛ جرائم الحرب في العراق[١٦]. الذي صدر بالفرنسية بباريس لتعذر نشره في الولايات المتحدة الأمريكية لرفض النَّاشرين نشره.

عرض **جيمي ميسي** في هذا الكتاب أشياء كثيرة منها وما رأى زملاءه أو رؤساءه يفعلونه، وهو الشاهد الأمريكي الذي عاش الأحداث الفاعل فيها وليس عربيًّا أو خصماً لأمريكا.

---

١٤ . تومان عليلي: **أشعر بالعار لأني أمريكي؛ لقاء مع الطيار الأمريكي سيلفيان كوانتوجيريمس** . م. س.

١٥ . **جيمي ميسي** ضباط برتبة رائد في السرية السابعة من الكتيبة الثالثة في البحرية الأميركية (المارينز)، يبلغ من العمر ٣٢ عاماً، خدم في المارينز ١٢ سنة، وبقي أمامه سبع سنوات أخرى حَتَّى يتقاعد، لكنَّهُ آثر ترك كل مكاسب التقاعد والبقاء في الخدمة هذه السنوات من أجل أن يعلن الحقيقة للعالم، لأنها العلاج الوحيد لحالته.

١٦ . عرض الكتاب عماد الدين حسين . نشر على مواقع إلكترونية متعددة.

أشياء كثيرة في هذا الكتاب يجب أن نذكرها، ولكن حسبنا ما يخصُّ فكرة موضوعنا هنا، وهي كثيرة أيضاً، ولذلك نختصر. يقول **جيمي ميسي**: «كنت مؤمناً بالجيش ورسالته... وعندما ذهبت إلى العراق مع بداية الغزو، لم أصدق ما فعلت، لقد قتلنا المدنيين، وأشعلنا النيران في السيارات بركابها، نهبنا القتلى وسرقناهم». ويتابع في وصف ما كان يفعله الجنود الأمريكان: «وألقوا ببعضهم في المستنقعات، ثم واصلوا سيرهم وكأن شيئاً لم يحدث، بل إنَّ بعض زملائه الجنود كان يضحك عندما أطلقوا النَّار على عراقي أعزل فجرى وساقه مبتورة! وعندما قال لقائده إننا نقوم بعملية إبادة عرقية بهدف النفط نعته بالجبان».

وقد أكد **جيمي ميسي** أنَّ الجنود الأمريكيين بالعراق يتلقون تعليمات عسكرية بسحق الأطفال الأبرياء في المدارس، خلال عمليات التدريب[١٧]. ومما قاله فيه أيضاً: «خلال شهر واحد قمت أنا وفرقتي بقتل نحو ٣٠ مدنيًّا عراقيًّا، وذلك خلال مهمتنا التي كلفنا بها في محاصرة القرى وإحكام الرقابة على نقاط التفتيش ببغداد».

ونقلت صحيفة **لومانيتيه** الفرنسية عن **جيمي** قوله «كنَّا لا نتردَّد أبدًا في إطلاق الرَّصاص الحيِّ على أيِّ سيارة تمر من نقطة التفتيش دون توقف». وأضاف «في أحد الأيام دخلنا إلى إحدى المدن، وأقمنا حاجزًا عسكريًّا، وفي اليوم الثاني بدأنا المهمة الإنسانية

١٧ ـ نقلاً عن وكالة الأنباء الإسلامية ـ ١٤ نيسان ٢٠٠٤م.

فيهـا، لكـن طبعًـا رفضـها العراقيـون؛ فمـن غـير المعقـول أن يسـتقبل فـرد الأطعمة من أيد قتلت أمه أو أخاه»[١٨].

وأشارت صحيفة **لومانيتيه** إلى «أن الانتحار كان هو الحل أمام عدد من جنود الاحتلال الأمريكي بالعراق؛ للتخلص من الإحساس بالذنب، واستدلت على ذلك بتصريح للمتحدث الرسمي باسم المارينز بأن ٢٣ جنديًّا أمريكيًّا قد انتحروا عام ٢٠٠٣م»[١٩]. هذا ما أعلنه الأمريكيون، أما الحقيقة فغير ذلك بالتأكيد.

وعلـى نحـو مشـابهٍ مؤكِّـد لهـذه الحقـائق أكـدت صـحيفة **الهيرالـد تربيـون** في تقريـر خـاص لهـا عـن الأحـوال النفسـية والصـحية للجنـود البريطـانيين العائـدين مـن العـراق بأنهـا حالـة مزريـة للغايـة وان بعضـاً مـنهم مصـاب بالصَّـرع والجنـون وأن آخـرين مصـابون بالاكتئـاب الحـادِّ والإقـدام علـى الانتحـار. وأضـافت: قبـل أسـبوع تقريبـاً وضـع سـبعة مـن الجنـود حـداً لحيـاتهم بـأن فضـلوا الانتحـار علـى الاسـتمرار في مشـاهدة الصُّـور المزعجـة الـتي أدت إلى حالـة مـن الصـراع الـداخلي غـير القابـل للتوفيـق، ونقلـت عـن أحـد الأطبـاء النَّفسـانيين إن الأفضـل عـدم إخـراجهم مـن العـراق لأن وجـودهم بيننـا سـيؤثر في الـرأي العـام لقـد صـدمت حقـاً عنـدما سمعـت بعـض جوانـب الألم والخـوف الـذي يعانيـه جنودنـا في العراق».

---

١٨ . م. س. ذاته.

١٩ . م. س. ذاته.

فمن نصدق بعد ذلك؟

أنصدق السِّينما الهوليوديَّة، والسِّينما في أصلها خيالٌ من خيالٍ في خيالٍ، أم نصدِّق الواقع الذي نشاهده بأعيننا ويشهد به ضبَّاط أمريكيون شاركوا في المخازي الأمريكيَّة في العراق.

نحن لا نشكُّ في أنَّ الولايات المتحدة لديها قوة جوية وصاروخية ضاربة قادرة على تدمير الأرض عدة مرات. وقد دمرت كثيرا في العراق وأفغانستان وفي كوسوفو وقبل ذلك في اليابان. ولكن لأنها حديد وحاسوب يفكر ويقرر ويدمر بضغطة زر فإنها لا تخاف، أما الجنود الأمريكيون فإنهم خلاف ما تصورهم السينما الأمريكيَّة.

هذه هي عقدة النقص والخوف والجبن التي تسيطر على النفس الأمريكية، التي يحاولون إخفاءها بالقصص الوهميَّة. فهل سنخاف من الأصنام ونحن نعلم أنها أوهام وفق كونها أصنام؟

★ ★ ★

عقيدة التجريد والإجهاز

رُبَّمـا تختلـف العقيـدة العسـكريَّة الغربيـة في الجانـب الأوروبي عـن العقيـدة العسـكرية الغربيـة علـى الطـرف الثَّـاني مـن الأطلسـي، أي العقيـدة الأمريكيَّـة. بـل الأكثـر صـواباً هـو العكـس، أعـني أنَّ العقيـدة العسـكريَّة الأمريكيَّـة تختلـف عـن العقيـدة العسـكريَّة الأوروبيَّـة، لأنَّ الأمريكـان فـرعٌ وامتدادٌ للأوروبيين.

لا شـكَّ في أنَّ الأمـم والجيـوش عنـدما تشـنُّ حربـاً علـى غيرهـا تسـتثمر أفضـل الظـروف لشـنِّ الحـرب مـن ضـعف وانشـغالٍ ومباغتـةٍ وغـير ذلـك ممـا يمكـن أن تسـتفيد منـه مـن الظـروف لتحقـق النصـر علـى من تشن عليهم الحرب.

لا اعـتراض علـى هٰـذه العقيـدة العسـكرية الـتي مورسـت عـبر التَّـاريخ لأنَّـهُ مـن غـير المقبـول أو غـير المنطقـي أن يكـون العكـس. ففـي غـير الحـالات الاسـتثنائيَّة لا يمكـن لجـيش ضـعيف أن يشـنُّ حربـاً علـى جيش أقوى منه بقليل أو كثير.

ولكـن مـا فعلتـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في العـراق أمـر لا يخطـر في بـال بشـر. فمنـذ حـرب الخلـيج الثانيـة الـتي تمَّ فيهـا تحريـر الكويـت في عـام ١٩٩١م والسياسـة الأمريكيـة تسـير في مخطـط مـدروس نحـو تجريـد العـراق مـن الأسـلحة الثقيلـة فالخفيفـة حَـتَّى وصـلت إلى مـا قبـل

عدوان الاحتلال إلى تجريد العراق من كلِّ أنواع الأسلحة التي يمكن إذا أطلق من العراق أن تخرج من العراق.

كان آخر تجريد من الأسلحة تدمير صواريخ الصُّمود التي لا يزيد مداها عن خمسين كيلومتراً.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تخطط جديًّا لاحتلال العراق منذ عام ١٩٩٦م على أقلِّ تقدير، وكانت الولايات المتحدة جاهزة لشنِّ الحرب العدوانية لاحتلال العراق منذ تلك السنة، ولكن الجبن الأمريكي كان أكبر من أن تقدم على هذه الخطوة من دون أن تعلم ماذا يوجد في العراق على امتداد مساحته من مختلف أنواع الأسلحة.

استخدمت الولايات المتحدة، بالضغط والإكراه والتهديد والإرهاب، منظمة الطَّاقة الذريَّة الدوليَّة وفرق التَّفتيش من أجل إجراء مسح شامل لأرض العراق ومعرفة كل شبر فيها، وزرع نقاط إرشاديَّة للطيران الحربي الأمريكي، ونقاط تجسس، وتحضير عملاء...

ولكن معرفة ماذا يوجد من الأسلحة في العراق، وزرع نقاط الإرشاد والتجسس... لم يكن كافياً لتبديد الخوف والجبن لشن عدوان الاحتلال، ولذلك سعت الولايات المتحدة بالتزامن مع ذلك إلى تجريد العراق من الأسلحة استناداً إلى (قرارات الشَّرعيَّة الدوليَّة) التي أباحت للولايات المتحدة الأمريكية أرض العراق ومقدراته، وفوضتها بالتفتيش والتقدير، فراحت تنزع الأسلحة العراقية، وتفكك منشآت العراق

العسكريَّة؛ خطوة خطوة... على طريق التجريد الشَّامل، بزعم التفتيش عن أسلحة الدَّمار الشَّامل.

كل ذلك كان في نظري من أجل تجهيز العراق ليكون مشلول المقاومة عند شنَّ الحرب، لأنَّ احتلال العراق جزء من الاستراتيجيا الأمريكية وليس وحاماً ولا مصادفة ولا قراراً عارضاً، ولا خاطئاً... إنه قرار مخطط له تخطيطاً جديًّا منذ سنوات طويلة. لأنَّ الجبن الأمريكي أكبر من أن تشنَّ الحرب من دون ضمان النَّتيجة ضماناً تامًّا، خاصَّة وأنها أيضاً صارت متفرِّدَة في زعامة العالم وليست على استعداد لتلقي أي صدمة تهين كرامتها ومكانتها وقوتها أمام دول العالم.

تستطيع الولايات المتحدة أن تحسم المعركة جوًّا، هذا صحيح، ولكنها على الأرض من أجبن الأمم، وأكثر الجيوش جبناً على الرغم مما تصوره لنا السِّينما الأمريكيَّة من قُوَّة هذا الجيش وبطولاته وفدائيَّته واستبساله واستماتته وانتصاره اليقيني.

يؤمن الجيش الأمريكي بأنه الجيش الذي يهابه الجميع ولا يقهر أمام أي جيش في العالم، ولكن قيادته تدرك أنه جيش جبان إذا لم تمسح الأرض أمامه فإنه أعجز عن التَّقدُّم أمتاراً من سلحفاة، وحَتَّى يظل هذا الجيش على إيمانه تعمل القيادة الأمريكية على عدم إدخاله في معركة برية ما لم تمهد الأرض تماماً أمامه حَتَّى يتقدَّم على الأرض وكأَنَّهُ منتصر فعلاً.

ولذلك لم تقدِّم الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة على شن الحرب إلا بعد أن زرعت في كلِّ المواقع العسكريَّة نقاطاً إرشاديَّة للرادارات والطائرات الأمريكية حَتَّى تكون الأهداف سهلة واضحةً، وكانت لهذه خطيئة السماح لفرق التفتيش بالدخول إلى العراق، وهي خطيئة كبرى لا تغتفر لا يجوز أن تقع بها دولة عربيَّة أخرى مهما كانت الأسباب والنتائج. وقد أثبتت المعركة أنَّ الجيش الأمريكي الذي صور على أنه أسطورة بطولية، وأسطورة إلكترونيَّة، لم يعرف إلا ما قدَّمته له فرق التَّفتيش من معلوماتٍ، وما زرعته له من أجهزة تجسُّسٍ وإرشادٍ.

وبعد أن تمَّ تجريد العراق من كلِّ أنواع الأسلحة، وتمَّ زرع ما أمكن من نقاط التَّفتيش والإرشاد والتجسُّس وجدت الولايات المتحدة الأمريكيَّة الفرصة المناسبة لاحتلال العراق، فَشَنَّت حربها على العراق بالتعاون مع شريكتها بريطانيا وبعضاً من الدول الخاضعة للسيادة الأمريكية التي شاركت كلٌّ منها ببضع مئات من الجنود لتعطي غطاء شرعيًّا للعدوان والاحتلال. وحَتَّى تعطي عدوانها واحتلالها شرعيَّة[٢٠] زعمت أنَّ الاحتلال كان لتجريد العراق من أسلحة الدمار الشَّامل؛ الذرية، ثُمَّ الكيماوية، وبعد الحرب تغيرت الذرائع وتبدلت؛ كلما انفضح كذب ذريعة تم الانتقال إلى ذريعة أخرى بهدوء ومن دون شعور بالذنب أو الخجل... فصار سبب

(٢٠) . الحقيقة أنَّ الولايات المتحدة لا تبحث عن غطاء شرعي لشن عدوانها على العراق، وإنما تريد أن تشن حربها وتحتل العراق وتحقق مصالحها بتمويل من (الشرعية الدولية وجيوش الأمم الأخرى) وهذا منتهى الخسة واللؤم.

الاحتلال القضاء على نظام **صدام حسين**، ثُمَّ تحرير العراق... واستقرَّ الأمر بعد انهيار الذرائع كلها على دمقرطة العراق... الولايات المتحدة احتلت العراق من أجل دمقرطته. وما زالت تظنُّ الولايات المتحدة أَنَّهَا حقَّقت الدِّيمقراطيَّة للعراق[٢١]!

هذا السُّلوك في تجريد الخصم من كلِّ أسلحته التي يمكن أن يدافع بها عن نفسه ثُمَّ الإجهاز عليه بهذه الطريقة الأمريكيَّة اللئيمة ظاهرة نادرة في التاريخ. وللتذكير أقول إنَّ انتظار الخصم حَتَّى يمل أو يتعب أو تنتهي أسلحته أو قوته أمر ممكن ورُبَّمَا لا يجوز الاعتراض عليه، أمَّا أن يكون المراد الاعتداء عليه تحت السيطرة بمعنى من المعاني، ويحكم كونه تحت السيطرة تتم عملية تجريده من الأسلحة ومعرفة كل ما يمتلك... ثُمَّ شن الحب عليه فهذا ما لم يعرفه التاريخ إلا مع الأمريكان الشماليون، ومعهم الحركة الصهيونية في فلسطين منذ احتلال فلسطين في عام ١٩٤٨م وحَتَّى يومنا هذا. حَتَّى هذا اليوم يمارس الكيان الصهيوني تجريد الفلسطينيين من أيِّ نوع من أنواع الأسلحة ويطلبون منهم التَّسبيح بحمد الصهيونية والكيان الصهيوني كلما اعتدى على الفلسطينيين ومارس الإبادة بحقهم... ورُبَّمَا يطالبون الفلسطينيين بالشعور بتأنيب الضمير إن لم يقم الكيان الصهيوني بارتكاب المجازر بحقهم!! وهذه هي العقيدة الأمريكية اليوم، وقد مارستها في العراق بجدارة.

---

(٢١) . سنتحدث عن دمقرطة العراق في مكان آخر من هذا الكتاب تحت عنوان: دمقرطة العراق.

قبل الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية لم يوجد من يمارس هذه الممارسة في حدود علمي.

العرب عندما تعاملوا مع الغرب وغير الغرب في حروبهم كانوا على العكس تماماً، كان **صلاح الدين الأيوبي**، في حربه مع الصَّليبيين، يأذن للجيوش المعادية بالتَّسلُّح والتَّزوُّد بالسِّلاح...

وليس هذا بغريب من أمتنا ولا عجيب، فمن أعراف الإسلام وسننه أنَّ المسلمين إذا أرادوا أن يحاربوا قوماً أنذروهم قبل أيام ليتجهزوا للحرب ويستعدوا لها... ويذكر لنا المؤرخون كيف أنَّ أهالي سمرقند قَد احتجوا للخليفة **عبد الملك بن مروان** على جيشه الذي دخل مدينتهم من دون إنذار بالحرب قبل أيَّامٍ جرياً على عادتهم في كلِّ مكان. فما كان من الخليفة إلا أن أحال الأمر إلى القضاء فحكم القاضي **عمر بن عبد العزيز** بخروج الجيش من المدينة وإمهال أهلها شهراً، لا أيَّاماً، للاستعداد للحرب[٢٢]!!!

---

٢٢ . فتحت سمرقند التي تقع فيما يعرف حاليا أوزبكاستان... في العصر الأموي على يد القائد قتيبة بن مسلم الذي لقب بفاتح المشرق لكثرة فتوحاته في بلاد المشرق، وكانت سمرقند قد فتحت على حين غرة بعد الفجر وسقطت في أيد المسلمين بعد مقاومة من جيوشها التي كانت تدين بالوثنية. ولم تمر إلا شهور قليله على هذا الفتح تجاوز بعده المسلمون سمرقند وفتحوا ما بعدها من بلاد.... حَتَّىْ أرسل كهنة سمرقند إلى أمير المؤمنين في دمشق وقد كان في هذا الوقت عبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز رسالة غريبة يحملها أحدهم تحمل شكوى لملك المسلمين ضد قائده قتيبة يشتكى فيها الكهنة من أن قتيبة لم يلتزم بأحكام الإسلام وشريعته وأنه عندما غزا مدينتهم لم يخيرهم بين الإسلام أو الصلح والجزية أو الحرب وأنه أقتحم البلاد من دون أن يعرف رأيهم. وبالفعل كانت المدينة قد عرفت بمقدم المسلمين وأعلنت أنها ستقاومه لكن قتيبة لم يخيرهم كما أمر رسول الله فما كان من عمر بن عبد العزيز إلا أن أرسل أحد قضاته إلى سمرقند فدخلها عند الفجر وذهب إلى ساحتها من دون أن يمر على بيت الإمارة وأستدعى قتيبة بن مسلم الذي كان في هذا الوقت مشغولاً بفتوحاته فيما بعد سمرقند كما

هل تجوز المقارنة بين هذه السُّلوكين؟

من المؤكَّد أنَّها غير جائزةٍ.

وعلى الرَّغْمِ من ذلك تُنعت أمَّتنا العربيَّة بالإرهاب، ويصف الغربيون أنفسهم بالإنسانيين والديمقراطيين وحاملي راية السَّلام!!

★ ★ ★

أستدعى الكهنة الذين هم أصحاب الشكوى، ولم يكن الكهنة وقتها يأملون بأكثر من بعض الأموال كتعويض عما حدث. ووقف الاثنان متساويين أمام القاضي النحيل الجسد البسيط الثياب وواجه القاضي قتيبه بما يقول الكهنه فاعترف ودافع عن نفسه بأن المدينة اشتهرت بكفر كهنتها وقسوتهم وقوة جيشها وشجاعته وأنه لو كان قد ترك لهم الوقت ليختاروا ما اختاروا إلا القتال ولكانوا استعدوا للقتال أشد الاستعداد وأن فتح سمرقند كان فاتحة خير لفتح ما بعدها من بلاد. ثم تكلم القاضي فقال: والله ما غزونا البلاد لمالٍ أو لسلطة أو جاهٍ بل نغزوها نبتغي وجه الله ونشر كلمته، إن كان كل هٰذا لله فلنفعله كما أمرنا الله ورسوله. ما جئنا تلك البلد لنستعبد أهلها بل لنخرجهم من ظلمة الكفر لنور الأيمان لقد حكمت بالأتي: أن تخرج كل جيوش المسلمين من تلك المدينة ويعيدوا أمرها إلى أهلها ويترك لهم كل شيء فيها ويعطوا فرصةً شهوراً يستعيدوا فيها قوتهم وعتاد جيوشهم وبعد ذلك فلجيوش المسلمين أن تعود وتخيرهم كما أمر الله ورسوله وما أكمل القاضي حكمه حتى أستأذن قتيبة وأعلم كل جيوشه ومن معهم من المسلمون أن يستعدوا للرحيل من المدينة تاركين كل ما فيها لأهلها.

★ ★ ★

تزوير التاريخ باسم الحرية

★ ★ ★

في التَّاسع من نيسان عام ٢٠٠٣م سقطت بغداد على أيدي الجيش الأمريكي، ونقلت الفضائيات نقلاً مباشراً مناظر أحيت على الفور ما قرأناه عن سقوط بغداد ذاتها على أيدي المغول والتتار من قتل وحرق وسلب ونهب... نحو ألف عام بَيْنَ السُّقوطين والصورة هي ذاتها ذاتها لا فرق إلا في عدَّاد الزمن!!

الصور الَّتي شاهدها مئات الملايين على الهواء مباشرة أبكت معظمهم؛ حسرة، ألماً، تعاطفاً... بكى الكثيرون... واحتجَّ الكثيرون في جميع أنحاء العالم على الولايات المتحدة الأمريكيَّة، على الجيش الأمريكي الذي لا يحرِّك ساكناً، ويترك هذا الفلتان، والغوغاء، والتسيب، وانعدام الأمن... ولم يتأخَّر الرَّدُّ الأمريكيُّ كثيراً ففي غضون التسيب وانتشار عمليات السَّطو والسَّرقة والنَّهب خرج علينا وزير الدفاع الأمريكي **دونالد رامسفيلد** ليعلق على هٰذه الأحداث المأساوية المؤسفة بابتسامته السَّاخرة سخريةً لاذعةً مُرَّةً ويقول: «إنَّها الحريَّة... الحرية هي أن تفعل ما تريد، وأن تسرق ما تريد، وأن تخطئ كما تريد...» [٢٣]!!!. عذر ليته يرقى إِلَى أن يكون أقبح من ذنب. حسبه أنَّ الإعلامي الأمريكي **ريتشارد درايفوس** علَّق على حسِّ

(٢٣) . ألقى رامسفيلد لهذا التصريح في مؤتمر صحافي جواباً على أسئلة الصحافيين عما يحدث في بغداد وعن سبب عدم تدخل الجيش الأمريكي لحماية المتحف.

السُّخرية فيه وفي الخطاب الأمريكي عامةً بقوله: «إنَّنا ننظر إلَى العالم بسخرية لأنَّنا نمتلك قلوباً محطَّمة خاوية... من يمتلك قلباً محبًّا لا ينظر إلَى الآخر بسخرية أبداً».

سنفترض كما زعم وزير الدفاع الأمريكي **دونالد رامسفيلد** أنَّها الحريَّة. وسنفترض معه أيضاً ما لا يجوز القبول حَتَّى في الافتراض أَو التخيُّل، وهو أن الحريَّة هي أن تسرق ما تريد، وكما تريد، وأن تفعل كلَّ ما تريد. ونسأله أوَّلاً: إذا كان الأمر كما تدَّعي، فلماذا يعاقب القانون الأمريكيُّ السَّارق والقاتل...؟! لن يكون لديه أيُّ جواب يمتلك أدنى إمكانيات الإقناع. وعلى الرَّغْمِ من ذلك نقول إنَّنا سنقبل بافتراضه المزعوم هٰذا الذي لا يقيم قيمةً أبداً لعقلٍ ولا لمنطق ولا لأخلاق... والقبول بهٰذا الافتراض يعني، وهٰذا ما أرادت الإدارة الأمريكيَّة أن تصوره وتقوله، هو أنَّ الشَّعب العراقي هو من يقوم بعمليات السَّرقة والسَّلب والنَّهب، وأَنَّهُ شعب همجيٌّ وحشيٌّ لا يعرف أوليات الحياة ومن واجب الولايات المتحدة أن تحتله وتحضِّره وتطوره، وأنَّ هٰذه العمليات هي نتيجة القهر والفقر والظُّلم الذي كان يعيشه في ظلِّ الطَّاغية **صدام حسين**... سيكون هٰذا الكلام جميلاً وصحيحاً لو أنَّ الشَّعب العراقيَّ هو الذي قام بكلِّ ذلك، ولكنَّ الحقيقة كانت خلاف ذلك تماماً كما أعلن العراقيون ذاتهم على شاشات التلفزة وصفحات الجرائد والمجلات، وأثبتوا ذلك بالأدلة، وكذلك كان شأن مندوبي الوسائل الإعلامية المختلفة الذين تابعوا الحدث. لَقَد أكدوا أنَّ

هـؤلاء اللصـوص كـانوا مجهـزين وقـد جـيء بهـم مـن أمـاكن مجهولـة بسـيارات كبـيرة تلقـي بهـم في الأمـاكن المقصـودة ليعيثـوا فسـاداً... فمـن الـذي جـاء بهـم؟ ومـن أيـن؟ رُبَّمـا لم يعـد مـن الأسـرار الجـواب علـى هٰـذين السُّؤالين.

لَقَـد اعـترف النَّقيـب **محمـد فيصـل حسـين غـازي** آمـر حمايـة **أحمـد الجلبـي** بالحقيقـة، أو بجانـبٍ منهـا، قـال: «تطـوعي في المؤتمر الـوطني العراقـي كـان مـن أجـل تحريـر العـراق وتحقيـق الدِّيمقراطيـة، وَلكِنِّي فوجئـت مـع سـقوط بغـداد بـأنَّ مستشـاري **الجلبـي**، وهـم أمريكـان، طلبـوا منِّي القيـام بأعمـال إرهابيَّـة، وسـرقة الآثـار، وحـدَّدوا لي بعـض الآثـار، وقـالوا لي: إنَّـهُ أمـرٌ سـهلٌ، وعاديٌّ... فرفضت...»[٢٤].

إذن ليست هي الحريَّة، وإنَّما هي عملية مخططة مبرمجة مجهزة. والغرض مـن ذلـك لـيس واحـداً، وإنَّمـا هـي أغـراض كثـيرة، ففـي غمـرة هـذه الفوضـى والغوغائيـة، علـى سـبيل المثـال، سـلبت موجـودات المتـاحف العراقيَّـة، وقَـد تفاوتـت الأرقـام الَّتي قُـدِّر بهـا عـددُ المسـروقات مـن هٰـذه الآثـار الَّتي تُعَـدُّ مـن أنفس الآثار في العالم وأكثرها أهميَّةً على الإطلاق، إِلَى جانب الآثار السُّوريَّة والمصريَّة[٢٥]، ولكِنَّ أصغر هـذه الأرقـام، في حقيقـة الأمـر، رقـمٌ مـذهلٌ يـؤدي

(٢٤) . جاء هذا الاعتراف بتسجيل مع النقيب محمد غازي عرض في لقاء مع أحمد الجلبي في قناة العربية يوم الخميس ٢١/ ٨/ ٢٠٠٣م... فـأنكر الجلبي معرفـة هـذا الشـخص... ولا يمكنـه إلا أن ينكـر ذلـك بالتأكيد.

(٢٥) . من المسلَّم به أنَّ بلاد الرافدين؛ سوريا والعراق، هي مهد الحضارات، مهد الإنسان الأول، والآثار الموجودة في بلاد الرافدين خاصَّة، وثم الآثار المصرية، هي الأكثر نفاسة وأهميَّة في العالم كله، لأنَّها

إِلَى صداعٍ يحطِّم رأس الحليم من النَّاس؛ إنَّهُ سبع عشرة ألف قطعة أثريَّة هي الَّتي سرقت... هٰذا أصغر الأرقام الَّتي تحدثت عنها وسائل الإعلام على الإطلاق. أمَّا الرَّقم الأكثر تداولاً فكان نحو مئتي ألف قطعة أثريَّة. ولكنَّ هٰذا الرَّقم، الأكثر تداولاً، على كونه مذهلاً مهمًّا كان نوع القطع الأثرية المسروقة حَتَّى ولو كانت هٰذه الآثار بخسةً رخيصةً.. يكفي أنَّها آثار... يظلُّ على الرَّغْمِ من هوله بلا معنى أمام الحقيقة؛ أمام معرفة الآثار الَّتي سرقت ومعناها التَّاريخي والإنساني؛ لَقَد سُرقت أنفس الآثار في العالم وأهمها وأغلاها، وإذا أردنا أن نَعُدَّ فإنَّ الصداع سيتملكنا بكلِّ تأكيد... فماذا نعدُّ منها؟ حسبنا أنَّ الرَّقم الأصغر الذي ذكر هو سبع عشرة ألف قطعة أثرية فإذا ذكرنا في كلِّ سطر أثرين فَقَطْ فإننا سنحتاج إِلَى ٣٧٠ صفحة لذكرها فَقَطْ، وإذا احتجنا إِلَى سطر فَقَطْ لكل أثر فإننا سنحتاج إِلَى ٧٤٠ صفحة!! فكيف لو أنَّنا اعتمدنا الرَّقم الأكثر تداولاً، أي مئتي ألف قطعة أثريَّة؟ سنحتاج إِلَى ثمانية آلاف وسبعمئة صفحة أَو إِلَى نصفها على الأقلِّ الأقل!!! فكيف لو أنَّنا أردنا أن نتحدث عن كل أثرٍ بصفحة على الأقل لوصفه وعرض قيمته وأهميته؟... سنحتاج بالتَّأكيد إِلَى جدار كبير في مكتبة.

ليس من العبث ولا المبالغة أبداً أن نقوم بذلك، وقد تمَّ على أيِّ حال، ولكن حسبنا أن نذكر بعض أبرز هذه الآثار

أقدم الآثار الَّتي خلفها الإنسان، إِلَى جانب كونها البدايات الأولى؛ للحضارة، للفن، للكتابة، للحساب، للعلوم...

الَّتي سرقت ولا ندري ماذا سيكون مصيرها، وإن عُرف مصير بعضها، ومنها:

١. قيثارة أور الَّتي هي أول قيثارة صُنِعَتْ في العالم، في سومر، وعلى أَحَدِ أطرافها رأس بقرة من الذَّهب الخالص.
٢. مزهرية لا تقدر بثمن تعود إِلَى خمسة آلاف عام، وتعد أول منحوتة في العالم[٢٦].
٣. أسود بابل وآشور المصنوعة من المرمر.
٤. المسلات الَّتي دونت تطور مراحل اكتشاف الكتابة و الَّتي نحتت عليها قصص ملوك بابل، ومشاهد من الحروب والحياة اليومية...
٥. شريعة **أورنمو** أول تشريع بشري في التَّاريخ، وقد سبقت شريعة **حمورابي** بألفي عام.
٦. وما لم يعرفه الكثيرون، وكنت منهم، هو أنَّ السومريين كانوا أوَّل من اخترع مُوَلِّدَ كهرباء في التَّاريخ البشري، وكان ذلك قبل الميلاد بنحو ألفي عام، وأن هذا المولد كان موجوداً في المتحف الوطني العراقي... كان موجوداً...
٧. عدة نسخ مخطوطة للقرآن الكريم؛ واحدة منها بخطِّ الإمام **علي بن أبي طالب** كرم الله وجهه، وأُخْرَى بخطِّ **ابن**

---

٢٦ . أعيدت هذه المزهرية بعدما استقرت الأمور بعض الشيء، ولكن إعادتها كانت بطريقة غامضة، وبأشخاص مجهولين. وفوق ذلك كانت محطمة إِلَى أكثر من قطعة!!

البـــواب أشـــهر الخطـــاطين العـــرب عـــبر التـــاريخ.. ومـــن المخطوطـات نسـخ بخـط **ابـن مقلـة** وهـو أيضـاً مـن أبـرز الخطاطين العرب عبر التاريخ..

وماذا نعد ونعد؟ لَقَد قُدِّرت قيمة الآثار المسروقة بما يزيد على تريليون دولار، أي ألف مليار دولار، أي واحد وعلى يمينه اثنا عشر صفراً... ولكنَّ هٰذا الرَّقم على هوله ليس شيئاً أمام القيمة الحقيقة لهٰذه الآثار، لأنَّ هٰذا التريليون ليس إلا قيمة سوقيَّة يقدرها مقتنوا التحف، أما القيمة المعنوية الَّتي يقدرها علماء التاريخ والآثار فإنَّها لا تقاس بالدولار ولا بالذهب!! فطمس تـاريخ بغـداد، والبصـرة، ونينـوى، وبابـل، والنجـف، وكـربلاء، وسـامراء، وسومر... أكبر بكثير جدًّا من أن يقاس بالأموال الَّتي يمكن طباعتها في ظرف ساعة ورُبَّما أقل...!!

فلماذا كان ذلك؟

القـول بـأنَّ الحريـة هـي أن تفعـل مـا تريـد كـلام لا معـنى لـه أبـداً، والقـول بـأن الشـعب العراقـي هـو الـذي فعـل ذلـك كـلام بـلا أيِّ معـنى أيضـاً. فقـد تناقلـت وسـائل الإعـلام العالميـة معظمهـا أنَّ «اللصـوص لم يقتربـوا مـن النسـخ المقلـدة أو غـير الأصـلية، وإنَّمـا كـانوا يتجهـون مباشـرة إِلَى النسـخ الأصـليَّة، الحقيقيـة...»، فكيـف يمكـن لمـن سـرق رِجْـلَ كرسـيٍّ خشـبيٍّ بـلا أيِّ قيمـة أن يتجـه إِلَى الأثـر الأصـلي ويبتعـد عـن النسـخة المقلـدة؟ وكيـف يمكـن لمـن سـرق عبـوات السـمن الفارغـة أن يتجـه إِلَى الأثر الأصلي دون المقلد؟!!

يبدو أنَّ كلَّ شيء مخططٌ ومدروسٌ... وقد أكَّدت الأخبار الَّتي نقلتها محطات التلفزة ووكالات الأنباء أنَّ الدبابات الأمريكية كانت أول من يحاصر هٰذه المتاحف، فتأخذ ما تأخذ وتترك لمن استجلبتهم إتمام المهمة ليبدو وكأَنَّ الناس هم الذين سرقوا كلَّ شيء!!

خُطَّة تبدو ذكيَّة في نظر من نسجوها وخططوا لها. ولكن حَتَّى لو افترضنا أنَّ هٰذا السيناريو هو الذي حدث كما تريد أن توهمنا الإدارة الأمريكيَّة، أي إنَّ الشَّعب العراقي هو الذي سرق. فإنَّهُ بحدِّ ذاته أيضاً إدانة للولايات المتحدة والدليل بل الأدلة على ذلك كثيرة، فقد حدثت عمليَّات السَّطو هٰذه على الرَّغْمِ من التحذيرات الكثيرة والمناشدات الَّتي وجَّهتها جهات مختلفة في جميع أنحاء العالم قبل الحرب، وقبل سقوط بغداد، من مثقفين، ومفكرين، وأدباء، وأشخاص مهتمين، وعلماء آثار، ومنظمات مسؤولة... من أجل حماية التُّراث العراقيِّ من السَّرقة والضَّياع، ومن هٰذه التَّحذيرات تحذير يستذرف الدَّمع أطلقه المؤرخ العالمي الشَّهير **بيير روسي** الذي توفي قبل أيام من اندلاع الحرب على العراق. قال وهو على فراش الموت، مؤثراً أن يكون هذا الكلام وصيته الأخيرة، وصيته الَّتي آثرها على أيِّ شيء آخر، قال: «انتبهوا إِلَى ما تلحقه الحرب من أذى لآثار بابل والرافدين، احرصوا على متحف بغداد ومكتبتها حَتَّى لا تعاد صورة **هولاكو** إِلَى قرننا».

وإذا كان إحساس **بيير روسي** وحساسيته وعشقه للشرق هو الذي دفعه إِلَى أن يختم حياته بتحذير من المساس بآثار العراق فإنَّ **دومينيك كولوم** مساعد مدير قسم آثار الشرق الأدنى في بريطانيا كان على بيِّنه مما هو مخطط له في العراق، ففي الحادي عشر من نيسان، أي بعد سقوط بغداد بيومين، ذكرت جريدة الجارديان البريطانية تصريحاً له صدر قبل الحرب بفترة، يحذر فيه من الخطر الذي يهدد الآثار الموجودة في العراق. وتحذيره هٰذا لم يأت من فراغ أبداً، فقد اضطر إليه بعد الأخبار الَّتي وصلته عن التَّآمر الأمريكي على هٰذه الآثار، فقد انعقد اجتماع بَيْنَ جامعي التحف والآثار التَّاريخيَّة وفريق محاميهم مع مسؤولين كبار في وزارة الدفاع الأمريكية من أجل إبطال قوانين منع تصدير الآثار في العراق...

ولكنَّهُم على أيِّ حال لم يبطلوا هذه القوانين، لأنَّهُم لم يكونوا بحاجةٍ إِلَى ذلك... لَقَد نهبوا الشرائع والقوانين والآثار...

هل سيزعم الأمريكيون أنَّهم لم يعلموا بذلك، أو أنَّ أحداً لم يخبرهم بذلك؟

لا يمكنهم ذلك، ولم يقولوه أصلاً، ولكنَّهُم قالوا والقول لأكثر من مسؤول أمريكي بدءاً من **جورج بوش الابن** مروراً بالوزراء **دونالد رامسفيلد وكولن باول وكوندليزا رايس**...: إنَّ الجيش الأمريكي غير متدرب على القيام بأعمال الشرطة، وكأَنَّ المطلوب منهم كان القيام بألعاب بهلوانية كالمشي على الحبل أو سحرية كتحويل المنديل إِلَى ثعبان...!!

جـواب غـير مقنـع بكـلِّ تأكيـد، لأنَّ كـل مـا كـان مطلوبـاً في تلـك الأيـام الأولى هـو وقـوف جنـدي، ورُبَّمـا جنـدي مـن دون سـلاح أمـام أيِّ مؤسسـة مـن هٰـذه المؤسسـات، وأكثـر مـا هـو مطلـوب دبابـة واحـدة مـع سـائقها... وعلـى افـتراض أنَّ أيِّ مؤسَّسـةٍ تحتـاج إِلَى أكثـر مـن ذلـك، إِلَى خـبرة في الحمايـة فـإنَّ أيَّ عـذر أمريكـي لتسـويغ عـدم الحمايـة لـن يكـون مقبـولاً، لأنَّ القـوَّات الأمريكيَّـة أفلحـت في حمايـة المنشـآت الَّـتي تريـد هـي حمايتهـا ولم يسـتطع أحـد الاقـتراب منهـا، ومنهـا مـثلاً وزارة الـنفط، ووزارة الإعـلام، ومكاتـب المخـابرات، ومقـر السَّـفارة الأمريكيَّـة، ومقـر السـفارة البريطانيَّـة... وكانـت قـادرة بالتأكيـد علـى إصـابة السَّـفارة الفرنسـية والسـفارة الألمانيـة بصـواريخ أخطـأت أهـدافها... والطَّريـف الغريـب، وللتـاريخ والـذكرى غـير الجميلـة، أنَّ **جـابر إبـراهيم خليـل** رئـيس المكتب الوطني لآثار العراق قال:

. «طلبنا حماية المتحف قبل اندلا ع الحرب، ووعدنا الأمريكيون بإرسال دبابات، لكنَّهُم أرسلوها لحماية وزارة النفط»[٢٧].

فكيـف اسـتطاعوا حمايـة وزارة الـنفط وغيرهـا ولم يسـتطيعوا حمايـة المتاحف؟!

رُبَّمـا تـدربوا فَقَـطْ علـى حمايـة وزارة الـنفط!! بـل هـذا مؤَكَّـد فقـد صـرَّح الـرئيس **جـورج بـوش الابـن** قبـل الحـرب بنحـو الشـهر أَنَّـهُ اتخـذ

(٢٧) . من لقاء في تحقيقات تلفزيونية بثتها قناة الجزيرة وقنوات أخرى عقب سقوط بغداد.

التَّدابير اللازمة لحماية النفط العراقي[٢٨]... وسجلاته المحفوظة في وزارة النفط... والأرجح بل المؤكد أيضاً كما رأى **دومينيك كولوم** أنَّ الأمريكيين قد تدربوا على سرقة المتاحف أيضاً... أَو على الأقل ما يريدونه منها!

والسُّؤال الذي يفرض ذاته الآن: إذا كان المقصود من هذه الحرب هو أسلحة الدمار الشامل، أو تحرير الشعب العراقي، فلماذا كان هذا النهب لآثار العراق؟

هل سنعود بعدما اتضح ما اتضح إِلَى لعبة الجدل العقيم ونفترض أنَّ الحرب كانت فعلاً من أجل أسلحة الدمار الشَّامل، أَو من أجل تحرير العراق، أو الشَّعب العراقي؟!!

سذاجة وحماقة أن نفترض ذلك فبعد تمام الثلاثة أشهر على سقوط بغداد ذكرت مصادر صحفية أمريكيَّة، فيما تناقلته وكالات الأنباء العالمية، أنَّ الإدارة الأمريكيَّة أقرَّت بعدم صحة المعلومات الاستخباريَّة الَّتي استند إليها الرئيس **جورج بوش الابن** في مزاعمه بأنَّ العراق سعى إلى شراء اليورانيوم من أفريقيا لاستخدامه في برنامجه للأسلحة النَّوويَّة. وفي السِّياق ذاته اعترف رئيس الوزراء البريطاني **طوني بلير** بعلمه بأنَّ هناك معلومات غير صحيحةٍ أوردت في التَّقرير الذي قدَّمته حكومته إلى البرلمان عن الأسلحة العراقية. وقبل ذلك لم يكن أحد ليقتنع بأن الحرب على العراق كانت من أجل الأسلحة

(٢٨) .كان هذا في خطابه الذي ألقاه يوم الخميس ١٤٢٣/١٢/٢٦هـ الموافق ٢٠٠٣/٢/٢٧م.

العراقية أو من أجل تحرير العراق، فبعد عشرين يوماً فَقَطْ من سقوط بغداد، وردًّا على الشكوك الكثيرة الَّتي أثارتها وسائل الإعلام العالميَّة على الدعاوى الأمريكية أعلن وزير الدفاع الأمريكي **دونالد رامسفيلد** بسخريته الممجوجة قائلاً: «إذا كان المفتشون الدوليون المختصون لم يجدوا أسلحة الدَّمار الشَّامل في العراق فكيف لنا أن نستطيع ذلك؟!»[٢٩].

إذن لم يعد من الجائز افتراض أنَّ هذا هو الغرض من الحرب، وعلى الرَّغْمِ من ذلك سنقبل هذا الافتراض جدلاً، ونقول: إذا كان هٰذا هو الهدف فلماذا سرق الأمريكيون الآثار؟ أَو على الأقل: لماذا سمحوا بسرقة هٰذه الآثار؟!

إنَّهُم في حقيقة الأمر يريدون محو ذاكرتنا، محو تاريخنا، محو ماضينا... والحرب على العراق والأمَّة ليست من أجل النفط، ولا من أجل إسرائيل وحدها... إنَّها تعبير عن الحقد الأعمى على تاريخنا، على أصالتنا، على جذورنا الضَّاربة في عمق التَّاريخ... على أنَّنا شعبٌ له هوية، وهم بشر ولكنَّهُم بلا هوية... على أنَّنا نحن صانعوا التاريخ وهم مستهلكوه... على أننا نحن التاريخ الحقيقي، وهم التاريخ المزور...

ظنوا أنَّهم بسرقة هذه الآثار وتغييبها سنصبح بلا هوية ولا تاريخ، وأنَّهُم سيصبح لهم هوية وتاريخ... ونسوا، وهم الذين اكتشفوا الخريطة الوراثية

(٢٩) .كان هذا في خطابه في التاسع والعشرين من نيسان ٢٠٠٣م.

للإنسان، أنَّ خصائص الهوية والثقافة والعرق... جزءٌ من الجينات الَّتي تنتقل من جيل إِلَى جيل.

رُبَّما يكون خير ما يعبِّرُ عن ذلك مثل شعبيٌّ متداول عن ابنٍ طموحٍ ولكن سيرة أبيه وسخة غير مشرِّفة. قال الابن لأبيه: حَسِّن خصالك، شرِّفني. فقال الأب: وهل هناك من لم يعرفني؟!

★ ★ ★

دمقرطة العراق والعالم العربي

الحقُّ أنِّي أحار من أين أبدأ في الكلام على الحمق الأمريكي في مسألة دمقرطة العراق خاصَّة والعالم العربي عامَّةً. أأبدأ من مشروع الشَّرق الأوسط الكبير؟ أم أبدأ من المخططات الأمريكية لتربية العرب وإحسان تأديبهم بمناهجها التربويَّة التي تعدها لهم كي يحسنوا التعامل مع البشر؟ أم أبدأ من التَّطبيق العمليِّ في دمقرطة دولة عربيَّةٍ هي العراق؟

لم تكن دمقرطة العراق أول المشروع وإنَّمَا كانت الخطوة التَّطبيقيَّة الثَّانية بعد احتلال أفغانستان والزَّعم من ثمَّ أَنَّها تريد تخليصها من ديكتاتورية طالبان.

منذ زمنٍ بعيدٍ والأمريكان خاصَّة يسعون لدمقرطة العالم العربي، حاملين المشروع الأوروبي الغربي متابعين إياه. ومن ناحية تاريخيَّة الفكرة لا بُدَّ من الرَّبط بَيْنَ الشَّرق الأوسط أَو الشَّرق أوسطيَّة من جهة أولى والشَّرق الأوسط الكبير من جهةٍ ثانيةٍ. فالشَّرق الأوسط في الفكر الغربيِّ التَّقليديِّ هو الاصطلاح المصطنع لآسيا تحديداً ويضمُّ دول آسيا العربيَّة والباكستان وأفغانستان ودول آسيا الوسطى. والشَّرق الأوسط بهٰذه القسمة له تتمَّات في هٰذا الشَّرق هي الشَّرق الأدنى والشَّرق الأقصى. وكان المقصود بتسمية الشَّرق الأوسط التَّعامل مع هٰذه المنطقة تعاملاً غَيْرَ قوميٍّ لسهولة ضمِّ الكيان الصهيوني إليها والقيام من ثَمَّ بهضم هٰذا الكيان.

فكرة الشَّرق الأوسط بهذا الطَّرح المضمر لضمِّ الكيان الصِّهيونيِّ باءت بالإخفاق، وتبيَّن عدم جدواها، وأكَّد إخفاقها الذَّريع الشَّعب المصريُّ المقيَّد بالعلاقات التَّطبيعيَّة الكثيرة والقويَّة مع الكيان الصِّهيونيِّ ولكنَّهُ مع ذلك لم يتمكَّن من هضم الكيان الصِّهيونيِّ، وظلَّ التَّطبيع مقتصراً على الطَّابع الرَّسميِّ أو الحكوميِّ والقليل القليل ممن باعوا الهويَّة لغَرَضٍ بخس.

فكرة الشَّرق الأوسط الكبير إذن ليست بالجديدة أبداً ولكِنَّها لم تتحدَّد في الصِّيغة المرسومة إلا في السَّنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، أو رُبَّما السَّنوات الأخيرة من القرن العشرين. بل من شبه المؤكَّد أن هذه الفكرة قد أخذت أبعادها الرَّئيسة قبل الحادي عشر من أيلول ٢٠٠٠م، ورُبَّما، ولهذا ظنٌّ بل اعتقادٌ خاصٌّ، يكون الحادي عشر من أيلول جزءاً من هٰذا المشروع، إذ بعد أشهرٍ قليلةٍ من الحدث خرجت علينا الإدارة الأمريكيَّة بدعوى تجفيف منابع الإرهاب الماديَّة والمعنويَّة والثَّقافيَّة والرُّوحانيَّة، وبدأت منذ أواسط عام ٢٠٠١م بمطالبة الدُّول العربيَّة بتعديل مناهج التَّربية والتَّعليم، وخاصَّة التَّربية الدِّينيَّة والوطنيَّة والقوميَّة، محدِّدة طلباتها بإلغاء التَّربية القوميَّة، وإلغاء فكرة العروبة، وحذف بعض الآيات القرآنيَّة من المناهج الدِّراسيَّة، وعلَّقنا حينها بأَنَّها قد تطالب لاحقاً بحذفها من القرآن ذاته، ولم يبتعد تعليقنا عن الواقع إذ ظهر في أواخر عام ٢٠٠٤م ماُ سِّمي القرآن الصَّحيح، أَو الفرقان الحقيقي، الذي كان استنساخاً للإنجيل والتَّوراة بلفظ يشبه اللفظ القرآني. وطالبت بوضع مقرَّرٍ بديلٍ عن كلِّ ذلك هو: تربية التَّسامح، الذي سرعان ما طبقته مصر. وتسعى بعض الدُّول العربيَّة إلى تطبيقه بطريقة أَو

بأخرى. وهٰذه الفكرة ذاتها هي بداية التفكير العملي في دمقرطة العالم العربي بزعم أنَّ السلطات الديكتاتورية العربية هي التي تولد الإرهابيين والمتطرفين بطريقة أو بأخرى، ولذلك يجب إحلال الدِّيمُقراطِيَّة في العالم العربي.

وفي آب من عام ٢٠٠٢م أشارت جريدة الواشنطن بوست إلى أنَّ إدارة الرَّئيس **جورج بوش الابن** تنوي بدء العمل ببرنامجٍ جديدٍ قريباً لتشجيع ما أسمته الإصلاحات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والتَّعليمية في الشَّرق الأوسط. وسيَتَضمَّن البرنامجُ تمويلاً لصحفيين ونشطاء سياسيين[٣٠] (أي قِوى معارضة تندرج تحت ألوية حقوق الإنسان والحريَّة والدِّيمُقراطِيَّة). وأكَّدت الجريدة نقلاً عن مسؤولين أمريكيين قولهم: «إنَّ وزير الخارجيَّة **كولن باول** سيكشف قريباً عن هٰذا البرنامج الذي سيتضمَّن كذلك إعادة النَّظر في فعاليَّة معونة أجنبيَّة قدرها مليار دولار توجَّه للمنطقة تريد الإدارة تخصيصها بفعاليَّة أكبر لحفز ما تراه إصلاحات اقتصاديَّة وديمقراطيَّة[٣١]. وفي الخبر ذاته علَّق مسؤولٌ كبيرٌ في الخارجيَّة الأمريكيَّة قائلاً: إنَّ هذا البرنامج تغيير تامٌّ في المعايير التي ننظر من خلالها للشَّرق الأوسط... إنَّ كيفيَّة تسيير شؤون هذه البلدان يجب أن تكون موضع اهتمامنا.

هٰذا المشروع لم يكن خافياً على المثقَّفين والمهتمِّين، ولذلك نشر الكاتب الأمريكيُّ **وليام فاف**، قبل الحرب على العراق، مقالاً

---

٣٠ ـ خبر نشرته جريدة الواشنطن بوست يوم **الأربعاء ١٤٢٣/٦/١٢هـ الموافق ٢٠٠٢/٨/٢١م. وتناقلته وكالات الأنباء العالميَّة.**

٣١ ـ م. س. ذاته.

قال فيه: «إنَّ الحرب ضدَّ العراق تدخل في إطار خطَّةٍ بعيدة المدى لإعادة تشكيل خريطة العالم الإسلاميِّ واستبدال الحكومات الموجودة في المنطقة كافَّةً»[٣٢]. وكذلك نشر الكاتب البريطانيُّ **باتريك سيل** مقالاً قال فيه: «إنَّ المتطرِّفين حول **بوش** مع **شارون** يرون أنَّ هذه الحرب ستكون فرصةً لإعادة ترتيب الجوار الإسرائيليِّ»[٣٣]. وقد علَّق **وليام بيكر**[٣٤] على ذلك قائلاً: «أعتقد أنَّ هذا جزءٌ لا يتجزأ من خطَّة، ولكن ما هو أكبر حَتَّى من ذلك هو أنَّ المفهوم الغربيَّ للإمبرياليَّة والاستعمار الجديد يريد أن يعيد ترتيب الوضع في مختلف البلدان في المنطقة من أجل السَّيطرة على النِّفط والغاز وموارد الطَّاقة في المستقبل، لهذه هي السِّيادة في مفهومها الحقيقي. أي لن يكون هناك منظمة أوبك بإمكانها أن تهدِّد الأمريكان كما فعل الملك **فيصل** في عام ٧٢، سيكون بإمكاننا أن نحصل على كلِّ البترول والبِنْزين الذي نريده»[٣٥].

على الرَّغْمِ من وضوح الغاية والهدف والمشروع حَتَّى لدى المثقفين الأمريكيين الذين أعلن بعضهم ذلك، فإنَّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة والجوقة التي تنشد وراءها، ولفيف من الحكام العرب منهم،

---

٣٢ . أحمد منصور: **المخطط الأمريكي الجديد تجاه الدول العربية والإسلامية؛ لقاء مع وليام بيكر** . برنامج بلا حدود . محطة الجزيرة . يوم الأحد ١٤٢٣/٨/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٢/١٠/٢٧م.

٣٣ . م. س . ذاته.

٣٤ . مؤسس ورئيس مركز مسيحيون ومسلمون من أجل السَّلام.

٣٥ . وليام بيكر: اللقاء السابق.

راحت تضلِّل الرَّأي العام، كما تظن، ورتب لشنِّ الحرب على العراق بزعم وجود أسلحة الدمار الشامل؛ الذَّريَّة، ثُمَّ الكيماوية.

بعد الحرب تغيرت الذرائع وتبدلت، إذا كلما انفضح كذب ذريعة أسلحة الدمار الشَّامل، فتمَّ الانتقال إلى ذريعة أخرى بهدوء ومن دون شعور بالذنب أو الخجل... فصار سبب الاحتلال القضاء على نظام **صدام حسين**، ثُمَّ تحرير العراق... واستقرَّ الأمر بعد انهيار الذَّرائع كلها على دمقرطة العراق... الولايات المتحدة احتلت العراق من أجل دمقرطته. أي إنَّها عادت إلى السَّبب الرَّئيس الذي بنت مخططاتها على أساسه وهو إعادة بناء الوعي العربي، ولكن تحت اسم الدِّيمُقراطِيَّة.

فهل تحققت الدِّيمُقراطِيَّة في العراق؟ وماذا دفع العراق ضريبة لهذه الدِّيمُقراطِيَّة؟

لنبدأ بالثَّمن. سنرتِّب مفردات الثَّمن ترتيباً منطقيًّا وليس على أساس الأهميَّة فكل مفردات الثَّمن التي دفعها العراق على درجة واحدة من الأهميَّة.

أوَّل ما دفع من الثمن هو الكرامة، لقد هدرت كرامة العراق بأن أصبح بلداً محتلاً بعدما كان بلداً صاحب سيادة.

ثاني ما دفعه العراق من ثمن ثمناً للديمقراطيَّة التي جلبها له الأمريكيون هو أن حكام العراق بعد الاحتلال هم عملاء الاحتلال الذين باعوا الوطن للأعداء بثمنٍ بخس.

ثالث ما دفعه العراق من ثمن قتل الملايين من الأبرياء نساء ورجالاً وأطفالاً على أيدي جنود الاحتلال بدمٍ باردٍ وزعم أنهم من الإرهابيين، على أنَّ الإرهابيين هم المقاومون.

رابع ما دفعه العراق من ثمن الدِّيمُقراطِيَّة التي جلبها لهم الأمريكيون هو تشريد الملايين من العراقيين في أصقاع العالم.

خامس ما دفعه العراق من ثمنٍ للديمقراطية هو الفصل بَيْنَ أبناء الأسرة الواحدة، فمعظم الأُسر العراقيَّة مقسمة ما بَيْنَ العراق ودول العالم الأخرى؛ الأب في بلد، وبعض الأولاد في بلد، وبعضهم في بلد آخر...

سادس ما دفعه العراق ثمناً للديمقراطيَّة التي جلبها له الأمريكيون الأمان، فلم يعد من شارع أو حيٍّ في العراق فيه أمان.

سابع ما دفعه العراق من ثمن هو انقسام الدولة إلى دويلات وإمارات تهدِّد كيان الدولة الواحدة، وثَمَّة مشروع فعليٌّ لتقسيم العراق إلى عدَّة دول. وقد بدأ هذا المشروع فعليًّا فيما سمي الفيدراليات العراقية الثلاث.

ثامن ما دفعه العراق من ثمن هو ولادة الطائفية التي لم تكن موجودة، الطَّائفيَّة، وقد عمل الاحتلال الأمريكي بكل وقاحة ولؤم على تكريس الطَّائفيَّة في الدُّستور وتوزيع المناصب والوظائف في الدَّولة.

تاسع ما دفعه العراق من ثمن للديمقراطية التي جلبها له الأمريكيون هو سرقة الآثار التَّاريخيَّة التي لا وجود لمثلها عند أمَّة من الأمم في أول يوم من الاحتلال[٣٦].

عاشر ما دفعه العراق من ثمن هو ذهاب الدَّولة ذهاب الدَّولة، الدَّولة التي قضى العراقيون دهراً في بنائها واستقرارها لم يعد لها من وجود، لقد عاد العراق إلى حكم العشائر والقبلية والطائفية التي تجاوزها العراقيون منذ زمن بعيد في القرن العشرين.

حادي عشر مفردات ما دفعه العراق من ثمن للدِّيمقراطيَّة التي جلبها الأمريكيون هو نسف البنى التَّحتيَّة؛ الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة والتَّعليميَّة والماديَّة... فتراجع العراق مئات السِّنين من التَّخلف الذي يحتاج إلى زمن طويل، ومال كبير حَتَّى يعود إلى نقطة الصفر من جديد.

ثاني عشر مفردات ما دفعه العراق من ثمن هو النهب المنظم والعشوائي لأمواله وثرواته، وبعد أن أشرنا إلى أبعاض ذلك سابقاً، نركز هنا على النفط الذي لا يعلم العراقيون شيئاً عن نهبه من قبل قوات الاحتلال.

هل دفع شعبٌ في العالم وعبر التاريخ مثل هذا الثمن؟

لو أنَّ العراقيين هم الذين دفعوا بإرادتهم وسعيهم لهذا الثمن للحصول على حريتهم وديمقراطيتهم لكان ثمناً كبيراً وكبيراً جدًّا أكبر من الحرية والدِّيمُقراطِيَّة التي سيحصلون عليها بكثير. ولكن الاحتلال، العدو، هو الذي

---

(٣٦) . انظر تفاصيل سرقة الآثار العراقيَّة في الفصل المخصوص لهذا الغرض في هذا الكتاب تحت عنوان: تزوير التاريخ باسم الحرية.

غرَّمهم بهذا الثمن الباهض الذي لم يدفع نصفه شعب في التاريخ لا بإرادته ولا مرغماً من الاحتلال، اللهم إلا الهنود الحمر الذي بنى الأمريكيون دولتهم على جثثهم ودمائهم وتاريخهم.

إذن هي عادة عند الأمريكيين.

ولكن بعد كلِّ هذا الثَّمن هل تحققت الدِّيمُقراطِيَّة؟

إنَّ الثَّمن ذاته يقول إنَّه لا يوجد في العراق أدنى أدنى حدود الدِّيمُقراطِيَّة، بل الواقع يقول إنَّ ما كان من ديمقراطيَّة في أيام (الديكتاتور **صدام حسين**) يفوق بأكثر من ألف مرَّة ما هو متحقِّق منها اليوم بعد الاحتلال وسنوات من ترسيخ الدِّيمُقراطِيَّة بعد الاحتلال. ولذلك فإنَّ السؤال عن تحقق الدِّيمُقراطِيَّة في العراق سؤال غبيٌّ، أمَّا الغباء الذي لا حدود له فهو الزعم أنه يوجد شيء من الدِّيمُقراطِيَّة في العراق اليوم.

مع ذلك فإنَّ المسؤولين الأمريكيين يظلُّون يزعمون بَيْنَ اليوم والآخر أَنَّهُم حقَّقوا الدِّيمُقراطِيَّة للعراقيين. كلما عوتبت الولايات المتحدة الأمريكية على جريمتها باحتلال العراق قال المسؤولون الأمريكيون على مختلف مستويات المسؤوليَّة: «لقد حققنا الدِّيمُقراطِيَّة للعراقيين»، والمصيبة، المضحكة المبكية، أنَّ أكثر ما يظهر هذا التَّعبير عند حدوث انتخابات في العراق.

حدثت بعض الانتخابات في العراق، ولم تكن في كل مرة انتخابات، وإنما كانت عصابات تقود الناخبين، ولا يشارك في

الانتخابات إلا أقل القليل من العراقيين، ومع ذلك يزعمونها انتخابات ديمقراطيَّة، ويقول **جورج بوش الصغير** في كلِّ مرة، ومع جوقته بالتتالي: «ألا ترون أننا حققنا الدِّيمُقراطِيَّة للعراقيين؟ إنهم ينتخبون الآن... لقد جرت انتخابات في العراق».

كم نحن عاجزون عن شكرك يا **جورج بوش الصغير**. لقد جعلت أهلنا في العراق ينتخبون. لقد كانوا ينتحبون أيام **صدام حسين** من أجل أن يقوموا بالانتخابات ولكنَّهم لم يستطيعوا! لم يكونوا يعرفون الانتخابات أيام **صدام حسين** ولم يسمعوا بها، ولولا فضل جورج بوش الصغير لما عرف العراقيون الانتخابات!

العراقيون اليوم ينتخبون. ولذلك هم أسعد شعوب الأرض قاطبة لأنهم ينتخبون، حَتَّى مع كونهم لا يستطيعون الخروج إلى الشارع، حَتَّى مع كون كلِّ واحدٍ منهم قد فقد نصف عائلته، ولا يستطيع أن يرى بعض أفراد عائلته الأحياء، حَتَّى كوهم من غير مأوى، ومن غير كهرباء، ومن غير دفءٍ بالنِّفط الذين يملكون منه أكثر مما تمتلك أي دولة في العالم...

ومع ذلك، وبكلِّ صفاقة، ومن غيرما خجل أو حياء أو وجل يقول المسؤولون الأمريكيون: «لقد صار العراق ديمقراطيًّا، إن العراقيين ينتخبون».

الطريف في الأمر أنَّ باسلاً عراقيًّا اسمه **منتظر الزيدي** قذف **جورج بوش الصغير** بحذائه في الزِّيارة الختاميَّة التي قام بها إلى العراق

ليودع إنجازه الكبير في دمقرطته، فقال معلقاً: لقد عَبَّرَ عن رأيه وهذا من ثمار الدِّيمُقراطِيَّة(٣٧).

حَتَّى هذا الحذاء الذي هزَّ العالم، وكان أكبر إهانةٍ لرئيسٍ أمريكيٍّ عَبْرَ تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، أراد بوش أن يمسخه بأن يجعله ثمرة الدِّيمُقراطِيَّة التي جلبها للعراقيين.

أمَّا أوَّل ثمرات الدِّيمُقراطِيَّة التي جلبها الأمريكيون فقد كانت في يوم سقوط بغداد إذ احتجَّ الكثيرون في جميع أنحاء العالم على الولايات المتحدة الأمريكيَّة، وتحديداً على الجيش الأمريكي الذي لا يحرِّك ساكناً، ويترك هذا الفلتان، والغوغاء، والتَّسيُّب، وانعدام الأمن... فأجاب وزير الدفاع الأمريكي **دونالد رامسفيلد** ليعلق على هذه الأحداث المأساوية المؤسفة بابتسامة صفروايَّة سفيهة ويقول: «إنَّها الحريَّة... الحرية هي أن تفعل ما تريد، وأن تسرق ما تريد، وأن تخطئ كما تريد...»!!!.

قد نظنُّ أنَّ الأمريكيين يؤمنون فعلاً بما يقولون، أو يصدقونه، ولكنهم يكذبون، ويعرفون أنهم يكذبون، ولذلك علَّق الإعلامي الأمريكي **ريتشارد درايفوس** بقوله: «إننا ننظر إلَى العالم بسخرية لأننا نمتلك قلوباً محطَّمة خاوية... من يمتلك قلباً محبًّا لا ينظر إلَى الآخر بسخرية أبداً».

لقد آمن **ريتشارد درايفوس** أنَّ **بوش ورامسفليد** وجوقتهما يسخرون بجراح العراقيين ومشاعرهم ولا يؤمنون بما يقولون.

---

(٣٧) . في يوم الأحد الرابع عشر من شهر كانون الأول عام ٢٠٠٨م قام الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بزيارة خاطفة سرية إلى بغداد ليودع حياته الرئاسية فودعه الصحافي منتظر الزيدي بالحذاء إذ قذفه بكلتا فردتي حذائه في حادثة صارت تاريخاً وختاماً لحياة بوش السياسية.

فهل أدرك الأمريكيون أنَّ **بوش الصَّغير** قادهم فعلاً إلى الطَّريق التي تجعلهم يمارسون الدِّيمُقراطِيَّة على الطَّريقة العراقيَّة؟!

إن أدركوا وجب أن يتصرفوا.

وإن لم يدركوا فإنهم يستحقون.

★ ★ ★

★ ★ ★

حقوق المنطوق

إنَّ المضـــحك المبكـــي في السياســـة الأمريكية تجاه العالم عامَّه، وتجاه ذاتها أيضاً، مسألة يبدو أنَّهَا جزء من التركيبة الخلقيَّة للعقلية الأمريكية وليست اكتساباً ولا تصنُّعا. ولَعَلَّ أجمل تشبيه ينطبق على هذه الحال هو عنوان الفيلم العربي: «غبي منه وفيه».

آخر صرعات المضحك المبكي في السِّياسة الأمريكيَّة تصريح السَّيدة **دانا برينو** الناطقة باسم البيت الأبيض يوم الأربعاء ٢٠٠٧/٩/١٩م.

مُنْذُ أشهر تزيد السَّنة والأخبار تتواتر من مختلف الأمكنة منبئةً عن نوايا أمريكيَّة خاصَّةً وغربيَّة عامَّةً بشنِّ هجوم على إيران بسبب نواياها النَّوويَّة، وعدِّها أحد أقطاب محور الشَّر مُنْذُ أحداث ما بَعْدَ الحادي عشر من أيلول التي غيرت وجه التَّاريخ وستغيره أكثر.

تغيَّرت وتيرة التَّهديد الأمريكي والغربي لإيران ما بَيْنَ التَّصاعد والتَّخامد، ولكِنَّها لم تغادر خطط التَّصميم على شنِّ الحرب على إيران بأيِّ طريقة من الطُّرق التي كان أعلاها الهجوم العسكري وأدناها العقوبات، وإن ظلَّت ظِلال العدوان العسكري هي الأكثر تخييماً فوق تجاذبات الحوار الغربي الإيراني بشأن السِّلاح النَّووي خاصَّة، وهو صورة واجهة الصِّراع ولكِنَّهُ في حقيقة الأمر أحد الأوجه وليس الوحيد.

النِّيَّة في شنِّ الحرب على إيران، أحد أهداف السياسة الأمريكيَّة في الفترة الراهنة، ليست خافيةً على الإطلاق، وتصريحات المسؤولين الأمريكيين وحلفائهم الغربيين تتصاعد يوماً بَعْدَ يوم، حَتَّى كان آخرها التَّصريحات المثيرة التي أطلقها وزير الخارجية الفرنسي **بيير كوشنير** عندما أعلن صراحة أن الحرب قادمة وأنَّ على العالم أن يستعد لهذه الخطوة. وأضاف: «على العالم أن يستعد للأسوأ»، بما يدلُّ على أنَّ المسألة أكثر من خطيرة، وأن ما ينتظر العالم رُبَّما يكون حرباً كبرى.

فرنسا وألمانيا اللتان كانتا ضدَّ الحرب على العراق انفتحت شهيتهما لهٰذه الحرب ضدَّ إيران فقد تصاعد التنسيق السياسي والعسكري بَيْنَ الرئيس الأمريكي **جورج بوش الابن** والرئيس الفرنسي **نيقولاي ساركوزي** أكثر مما كان عليه الحال مع الرئيس الفرنسي السابق **جاك شيراك** ليتجاوز الموضوع اللبناني إلى الموضوعات الأخرى، ومن هٰذا الباب كان تصعيد وزير الخارجيَّة الفرنسي **بيير كوشنير** لهجة الخطاب والتَّهديد ضدَّ إيران في الفترة الأخيرة.

أمَّا ألمانيا التي تبدو حَتَّى الآن مترددة حيال الملف الإيراني فإنَّ هذا التَّردُّد يبدو مزيداً من الليونة بالمقارنة مع ما كان من موقفها من الحرب على العراق. فالموقف الألماني من إيران يبدو متشدداً، ولكِنَّهُ حَتَّى الآن لم يصل إلى مستوى القبول بشنِّ الحرب على إيران.

أمَّا مواقف الدُّول الأوروبية الأخرى فهي هامشية إلى حدٍّ ما، ومع ذلك فمعظمها تقف مع الولايات المتحدة ظالمة ومظلومة.

الكيان الصهيوني رأس الحربة الأمريكية بامتياز، وهو أكبر المحرضين على الحرب ضدَّ إيران، بل إنَّهُ لم يفتأ يعلن بَيْنَ اليوم والآخر إنَّهُ هو الذي سيكون رأس الحربة في هذه الحرب، وأنَّهُ على استعداد لشنِّ الحرب وحده ضدَّ إيران، ولم يفتأ الكيان الصهيوني عن التحريض والاستفزاز ضد إيران بَيْنَ اليوم والآخر ليسهل انزلاق الغرب في الحرب ضدَّ إيران.

بل إنَّ بعض التحليلات السياسية للاختراق الجوي الصهيوني للآراضي السورية ليل الخامس من أيلول الحالي ٢٠٠٨م ذهبت إلى أنَّ المقصود بهذا الخرق هو تهديد إيران، ورسالة مباشرة إلى إيران أكثر من أن تكون رسالة إلى سوريا.

إيران، كأيِّ دولة غير عربيَّة، حَتَّى ولو لم تكن تمتلك أيَّ قدرة على الهجوم أَو الدفاع، أعلنت أنَّهَا ترفض هذه التهديدات، وأعلنت أنَّهَا سترد بقوة على الهجوم الإسرائيلي، وأنَّهُ قد نشرت مجموعة من الصواريخ التي ستنطلق دفعة واحد ردًّا على أيِّ هجوم إسرائيلي.

هذا الكلام منطقيٌّ تماماً، واضح صريح غير قابل للتأويل، فوسائل الإعلام الغربية كلها لم تغير النص الإيراني الذي قال: إنَّ إيران لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أيِّ عدوان إسرائيلي، وأنَّهَا سترد على العدوان الإسرائيلي. ولم نجد وسيلة إعلام واحدة تقول إنَّ إيران قالت بأنَّها هي التي ستشن الحرب على إسرائيل.

الكلام إذن منطقي واضح لا عيب فيه ولا خلل، وهو حقٌّ طبيعي تماماً. من الطبيعي أن يكون ردُّ المهدد بشنٍّ عدوان عليه أنَّهُ سيدافع عن نفسه، ولم نجد دولة في العالم، غير الدول العربية، تقول إنَّها ستستقبل العدوان بابتسامة، وإنَّهَا سترحب بجيش الاحتلال وتقيم له ولائم الغداء والعشاء على أنغام الموسيقى... لا تقول ذلك دولة في العالم حَتَّى ولو لم تمتلك بندقية واحدة.

هذا الكلام أثار الإدارة الأمريكيَّة واستفزَّها، والغريب أنَّهُ استفزها وأثار غضبها قبل الكيان الصهيوني ذاته موضع التهديد والرد على عدوانه. فخرجت الناطقة باسم البيض الأبيض **دانا بيرينو** يوم الأربعاء ٢٠٠٧/٩/١٩م لتدين هٰذا الرَّدَّ الإيراني على التهديد الصهيوني وتصفه بالصفاقة وانعدام اللباقة والخطأ...!

ماذا يعني ذلك؟

يعني بوضوح لا يحتاج إلى الشرح والتفسير أنَّ العقلية الأمريكية تقوم على أنَّ من حقها الاعتداء على من تشاء، وأنَّ من واجب من يتم الاعتداء عليه أن يستقبل العدوان الأمريكي ومعه الصهيوني بالترحيب والتصفيق والصَّفير الابتهاجي.

يعني أنَّهُ ليس من حقِّ أحد أن يدافع عن نفسه ضدَّ أي عدوانٍ أمريكي أَو صهيوني. وأن من واجب أيِّ دولة تحتلها الولايات المتحدة أَو تعتدي عليها أن تعد احتلالها نعمة من الله وهبة إلهية لا يجوز ردها أَو الاعتراض عليها.

هٰذه السُّلوك ليس الأول ولا الوحيد، ألا تريد الولايات المتحدة الأمريكية المبجلة أن تفرض على العالم الاقتناع بأن وجودها في العراق على الرَّغْمِ من كلِّ المآسي التي جرها على الشعب العراقي هو النعمة الإلهيَّة المقدسة؟!

ألا تريد أن تقنع العالم بأن احتلالها العراق ليس احتلالاً وإنَّمَا هو عمار وتحرير على الرَّغْمِ من كلِّ ما يظهر من دموية الأمريكان وتدميرهم الأخضر واليابس في العراق؟!

ألا تريد إقناعنا بأنَّ العدوان الصهيوني على شعبنا هو نعمة، وأن قتلهم أبناءنا وآباءنا واجب حضاري مقدس.

ألا تريد إقناعنا بأنَّ دفاع الفلسطينيين عن أنفسهم هو الإرهاب؟ وأن دفاع اللبنانيين عن أنفسهم هو الإرهاب؟

عجب عجب عجب...

أشعر بالعار لأني أمريكي

نشرت مجلة **إيدنليك** التُّركيَّة في العدد ٧٤٤ الصَّادر بتاريخ ٢١/٩/ ٢٠٠٣م، لقاءً مع الطيَّار الأمريكي **سيلفيان كوانتوجيريمس**[٣٨] أجراه الصحافي التُّركي **تومان عليلي**[٣٩] عن تجربة هٰذا الطَّيَّار في الحرب على العراق، وقد قام بترجمة هٰذا اللقاء وإعداده عن التُّركيَّة الدُّكتور **محمد يوفا** والدُّكتور **بسام عبد الله** ونشراه في جريدة تشرين السُّورية[٤٠]، وسننشر هٰذا اللقاء بالتَّرجمة المذكورة المنشورة في مجلة تشرين بعد تصويب الأخطاء المطبعية فقط، وهو ليس الشَّاهد الأمريكي الوحيد على العالم الأمريكي المجنون وقد أشرنا إلى بعض هٰذه الشَّواهد في أثناء هذا الكتاب. وفيما يلي نص اللقاء:

أوَّلا: كيف هربتم من العراق؟

لم يكن ذلك صعباً، فقد ذهبت إلى منزلٍ كنت أعرفه قبل ثلاثة أسابيع، حيث سبق لنا أن اقتحمناه مع مجموعة من جنودي، وعندما لجأت إليهم وكشفت لهم هويتي انتابني شعورٌ بالخوف الشَّديد، ولكنَّهم عاملوني بلطفٍ وقدَّموا لي الشَّاي، وساعدوني كثيراً خاصَّةً في التَّخطيط لعمليَّة فِراري

---

٣٨ . كان الطيَّار الأمريكي سيلفيان كوانتوجيريمس عضواً في مجموعةٍ خاصَّةٍ في الجيش الأمريكي مهمتها تصفية بعض الأعضاء في حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، وقد فرَّ من الحرب بعدما شاهد ما شاهده مما سيرويه في هذا اللقاء.

٣٩ . أجرى الصحافي تومان عليلي هذا اللقاء مع الطيار الأمريكي في يوغسلافيا.

٤٠ . ترجمة وإعداد: الدكتور محمد يوفا والدكتور بسام أبو عبد الله: جريدة تشرين . دمشق . عدد يوم الثلاثاء ٦ كانون الثاني ٢٠٠٤م.

من العراق إلى دولة مجاورة. ثُمَّ بعد ذلك وصلت إلى يوغوسلافيا، حيث استقبلت هنا استقبالاً جيِّداً جدًّا.

ثانياً: لماذا فررتم من وحدتكم في العراق؟

لقد شعرت بالقرف!! إنَّني أمارس القتل على نحوٍ آليٍّ، وأقف مع الطَّرف الظَّالم من دون وجه حق.

قبل ذهابي إلى العراق، كنت أشعر أنَّني أمريكيٌّ عظيمٌ، ولكنَّني أدرك الآن أن الأمريكيَّ معزولٌ وغير مرغوبٍ فيه.

قيل لنا إنَّ عدد القتلى من الجنود الأمريكيين «٢٠٢» جنديًّا بعد الأوَّل من أيَّار، والجرحى «٣٣٠٠» جنديًّا، وأعلم بأنَّ معظم الجنود يرغبون في الفرار، إذ كان لحرارة الصَّحراء ونظرة العراقيين إلينا تأثيراً سلبيًّا فينا، إضافة لذلك كنَّا نخسر يوميًّا عدداً جديداً من الجنود والأصدقاء، وكنَّا نتساءل دائماً: لماذا نحن هنا؟ وأين نحن؟

كنَّا نقتحم المنازل في الليل ونسبب الإرباك والإزعاج للمواطنين، ولا تغيب عن ذاكرتي تلك الطِّفلة العراقيَّة التي توفيت خلال إحدى عمليَّات الاقتحام بسبب الخوف والذُّعر الذي أصيبت به.

قيل لنا في أمريكا قبل قدومنا، إنَّ الشَّعب العراقيَّ سوف يستقبلنا بالزهور، حَتَّى إنَّهُم تحدَّثوا لنا عن العيون السُّود للفتيات العربيَّات، حَتَّى أنني نسيت حبيبتي في أمريكا من جراء ذلك.

كان اللباس العسكري الذي نرتديه ثقيلاً «وكأنك ذاهب إلى القمر» حَتَّى أنَّك لا تستطيع أن تحكَّ جلدك إذا رغبت بذلك،

وهٰذه البزَّات العسكريَّة تعبِّر عن الحالة المعنويَّة السَّيئة وعن الخوف الشَّديد، في وقت نحارب مواطنين عراقيين عاريي الأقدام، لكنَّك لا تقرأ في عيونهم الخوف والرُّعب.

كنت أفكِّر باستمرار في أنَّ لي أمًّا وحبيبةً وأصدقاء في أمريكا وكذلك لهؤلاء العراقيين، وأنا أمثِّل الطَّرف المعتدي بينما العراقي يدافع عن أهله ووطنه.

كنَّا نشاهد يوميًّا منظر القتلى العراقيين، وحَتَّى الجثث الملقاة في الشَّوارع ويصعب عليَّ كثيراً أن أتحدَّث عن أعمال التَّعذيب التي كنَّا نمارسها ضدَّ الأسرى العراقيين.

استخدمنا كلَّ الأساليب التي تشعر الأسير بالذُّلِّ والهوان، فمثلاً كنَّا نستخدم أسلوب (G17) ضدَّ الأسير والغاية من ذلك استسلام الأسير وقبوله التَّعامل معنا، كنَّا نضع كيساً قماشيًّا في رأس الأسير ونستخدم الأغلال البلاستيكيَّة التي تسبب الحروق نتيجة للحرارة المرتفعة وجروحاً عظيمة في رسغ اليد، لقد جرَّبنا ذلك أحياناً على أنفسنا ولم نتمكَّن من تحمُّل هذه الأغلال لدقائق إذ إنَّها كانت تسبب الحروق والحكَّ الشَّديد والجروح العميقة.

لقد صنعت هٰذه الأغلال في أمريكا وأحضرت إلى العراق، وبمعنى آخر فإنَّ بلدي «أمريكا» تنفِّذ وتطبِّق كلَّ الأساليب لزيادة تعذيب الأسرى وآلامهم، وقارنت ذلك مع تعامل العراقيين مع الأسرى الأمريكيين إذ كانوا يقدِّمون الشَّاي لهم، بينما نحن لا نقدم لهم حَتَّى الماء، ونقوم بنقلهم في شاحنات مفتوحة، وفي أسوأ الظُّروف،

يمكنك تصوُّر آلام هؤلاء الأسرى ووضعهم في أثناء نقلهم في حال وجود محدَّباتٍ وحفر في الطُّرق. **وحين الوصول إلى نقطة معيَّنة كنَّا نقوم برميهم من الشَّاحنة على الأرض، وكنَّا نبصق وحَتَّى نبول عليهم.**

هٰذه أشياء كلها غير إنسانية وأثرت فيَّ كثيراً.

كلنا نستخدم المخدرات! عددٌ كبيرٌ منَّا كان يتناول أنواعاً من المخدرات «الماريجوانا، الحشيش» ونحو ٧٠% من أصدقائي كانوا يتعاطون المخدرات، وحسب معلوماتي أنَّ أكثر من «٩٠٠» جندي أمريكي فَرَّ من العراق، ولا أستطيع أن أنسى نظرات المسلمين العراقيين لنا، خاصَّة عندما كانوا يرون الجنود الأمريكيين في غرف نومهم مع زوجاتهم، وقد كان هذا يحولهم إمَّا إلى أناسٍ من غير إحساس أو إلى أسودٍ مجروحة.

عندما كنَّا نعيش هذه التجارب كنَّا نردِّد مثلاً يقول: «لا تمسك ذيل النمر، وإذا أمسكته لا تتركه».

ولذلك كنَّا نفكِّر دائماً في ماذا سيفعل العراقيون بنا بعد أن نتركهم. أقول لكم بكلِّ صراحةٍ وأنا ارتجف الآن إن الفلسطينيين محقُّون عندما يتحوَّلون إلى قنابل حيَّة.

ثالثاً: أنت تتحدث إلى مجلة تركية، ما هو شعورك؟

أرى أنَّ لقائي مع شخصيَّات من تركيا مسألة مهمَّة، لأنَّكم قريبون جدًّا من العراقيين الذين تعلمت منهم الحضارة ورأيت بأمِّ عيني كم هم المسلمون منصفون.

إنَّ بلدان هٰذه المنطقة هي مهد الحضارات وفي الوقت الذي جئت فيه لأدمِّرها قدَّم لي أهلها المساعدات لأهرب من هذا الجحيم وعلَّموني الإنسانيَّة والحضارة، وعندما كنت أخطط للفرار كان معظم جنودي يهربون من واقعهم باللجوء إلى تناول الكحول والبكاء.

رابعاً: هل يمكن التشبيه بَيْنَ ما يجري في العراق وبين ما جرى في فيتنام؟

فيتنام؟؟؟ الوضع في العراق أبشع مما كان في فيتنام لأنَّي سمعت وقرأت عن فيتنام، ولكنَّني عشت شخصيًّا المظالم الوحشية في العراق. وتأكَّدت من أنَّهُ من الصَّعب جدًّا مواجهة أولئك الذين يدافعون عن وطنهم، إذ إنَّ معنوياتهم عالية جدًّا ويبدو أن ذلك آتٍ من مشاعر الدِّفاع عن الوطن والأهل.

أحيانا أفكِّر وكأنَّنا نعمل عملاء وأنَّنا خَدَمٌ للشَّيطان، ولا أتصور أنَّنا نمثِّل العدالة، لأنَّ العدالة لا يمكن أن تكون ممثلة باليورانيوم الموجود في الصواريخ النَّوويَّة.

ومن السُّخف الادِّعاء بأنَّنا لم نتلق معاملةً طيِّبةً في العراق، وهذا ما يؤكِّد أنَّ الشُّعوب ليست ضدَّ الشَّعب الأمريكي، بل هي ضدَّ سياسات الحكومات الأمريكيَّة، وربَّما كلُّ من يقاوم الأشياء السَّيئة هو إنسانٌ إيجابيٌّ.

وأقول لهؤلاء في أمريكا الذين يرغبون بالخدمة في الجيش الأمريكي في العراق بسبب المكاسب الماديَّة أو للحصول على الجنسيَّة

الأمريكيَّة أو لأيَّة أسباب أُخرى، أن يفكِّروا أولاً بشرفهم وإنسانيتهم، لأنَّ عليهم أن يتجرَّدوا من الجانب الإنساني كي يستطيعوا الخدمة هناك، لأن جيشنا هو نسخة منظمة مافيا لا تستطيع أن تخرج منها بعد دخولك إليها.

وصلتني أخبار بأنَّ عائلتي قد تبرَّأت منِّي، والشَّباب يزعجون أخي الصَّغير في المدرسة، ويطلقون عليه لقب «شقيق الخائن»، وأحيانا أسمع أنَّ بعض العائلات لا ترحب بالجنود الأمريكيين الذين يصلون إلى أمريكا بعد انتهاء خدمتهم في العراق، ويقبلون الأرض عرفانا بعودتهم بالسَّلامة، ويقولون لهم كان من الأفضل أن تموتوا لأنَّ لهذا كان سيساعدنا ماديًّا، وإنني استغرب هنا انتهازيَّة هذا المجتمع وغباءه.

تحاول الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة استخدام جنود بعض الدُّول الأُخرى درعاً واقياً، وقد تعلَّمت من العراق شيئين أساسيين:

أولاً: سوداويَّة المصالح الأمريكيَّة.

ثانياً: إنَّني أشعر بالعار لأنَّني أمريكيٌّ.

نعم، نعم بكلِّ راحة ضمير اليوم لست فخورا بأنني أمريكيٌّ، سأقول ذلك في كلِّ مكانٍ مهما كان الثَّمن. لقد غضبت في الماضي عندما قرأت سيرة الملاكم **محمد علي كلاي**، وكنت أسأل نفسي آنذاك كيف يمكن لأمريكي أن يرفض الخدمة في فيتنام، واعتبرته خائناً، ولكنِّي الآن أدرك بأنَّ **محمد علي** كان على حقٍّ، وكان يقول

في إحدى فقرات مذكراته: «هٰذه ليست حربي»، وكان يقول إنَّهُ «لو ذهب إلى فيتنام فإنَّهُ سيحارب مع الفيتناميين ضدَّ الجنود الأمريكيين»، وأنا أقول الآن: سأحارب مع العراقيين ضد أمريكا، لأنَّهم يمثلون جانب الحق.

★ ★ ★

★ ★ ★

صَدَرَ لِلمُؤَلِف

- أعاجيب السياسة الأمريكية؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي - الفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال و الاستقالة و الترميم - مكتبة دار الفتح - دمشق - ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شـــعر) - دار الأصالة للطباعة - دمشـق - ١٩٩٧م.
- أَنـا صـدى الليـل (شـــعر) ــ دار الأَصـالة للطباعـة - دمشـــق - ١٩٩٥م.
- أنـا لست عذري الهوى (شعر) ـ دار الأصالة للطباعة - دمشق - ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان - دار الفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٥م.
- أنـا وعينـاك صـديقان (شـعر) دار الأصـالة للطباعـة - دمشـق - ٢٠٠١م.
- أُنشـودة الأَحـزان (شـعر) - دار الأصـالة للطباعـة - دمشـــق - ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي - ط١: مكتبة دار الفتح - دمشق - ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي - دمشق - الطبعة الثانية ٢٠٠١م.
- انهيار الشعر الحر - دار الثقافة - دمشـــق (ط١) ١٩٩٤م. ــ دار الفكر الفلسفي - دمشـــق - (ط٢) ٢٠٠٣م.

- انهيار دعاوى الحداثة ؛ الحداثة ضرورة تاريخيَّة لا خيار سياسي - دار الثقافة - دمشق - ١٩٩٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٠م.
- بديع الكسم - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٩٤م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات - دار الفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراع الحضارات؛ الولايات المتحدة صنعت الحدث لتصنع المستقبل - دار إنانا - دمشق - ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال - جامعة تشرين - اللاذقية - ٢٠٠٧م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية - دار الفكر الفلسفي - دمشق - ١٩٩٩م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) - ن . م - دمشق - ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ - دار الأصالة للطباعة - دمشق - ١٩٩٤م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة - دمشق - ٢٠٠٧م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية - وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٨م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية - دار الفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٨م.
- العرب أعداء أنفسهم - دار ا لفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٤م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة - دار الأصالة للطباعة - دمشق - ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) – دار الأصالة للطباعة - دمشق - ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) - دار الأصالة للطباعة - دمشق - ١٩٩٦م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي - وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٦م.

- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) ـ دار الأَصالة للطباعة ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ ٢٠٠٧م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ ـ دار السلام للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) ـ دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها ـ دار إنانا ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م.
- مختارات من دارسي التراث العربي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ١٩٩٨م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) ـ دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

- النظـام الاقتصـادي العـالمي الجديد ـ مكتبـة دار الفتـح ـ دمشق ـ ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات ـ دار إنانا ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
- نهاية الفلسفة ـ دار الفكر الفلسفي ـ دمشق ـ ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا - دار الثقافة ـ دمشـق ـ ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) - دار الفكر الفلسفي - دمشق - ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة ـ دمشق ـ ٢٠٠٨م.

فهرس

- **الإهداء** ٥
- **التسلح من أجل ضرب الذات** ٧
- **الأمريكيون يقتسمون الجثة قبل قتلها** ٢١
- **اليورانيوم والعقلية الغربية** ٣١
- **لماذا... لماذا... لماذا؟** ٣٩
- **الأمريكان والبطولات الهوليودية** ٤٧
- **عقيدة التجريد ولإجهاز** ٥٩
- **تزوير التاريخ باسم الحرية** ٦٩
- **دمقرطة العراق والعالم العربي** ٨٣
- **حق فوق المنطق** ٩٧
- **أشعر بالعار لأني أمريكي** ١٠٥
- **صدر من كتب المؤلف** ١١٥
- **الفهرس** ١١٩

دار الفارابي
2008 للدراسات والترجمة والنشر

CRAZY WORLD !

JOKER AND TEARFUL
IN AMARECAN POLICY

BY
EZZAT ASSAYED AHMAD

Published By
DAR AL FEKR AL PHLSAPHY

Telefax. 00963-11-62597997

Damascus 2008

CRAZY WORLD !

JOKER AND TEARFUL
IN AMARECAN POLICY

BY
EZZAT ASSAYED AHMAD